الشعر يبقى أهم وسائل تقدمنا العلمي

الدكتور عبد الغني ماجد السروجي

تفضل الاخ الدكتور فاتحف «اللسان العربي» بهذه المحاضرة القيمة التي القاها في المؤتمر العربي السادس لطب الاسنان ببغداد ونحن ننشرها شاكرين :

شكا الوزير ابو طالب العلوي آثار بثر في جبهته الى الحكيم ابن سينا ونظم شكواه شعرا وانفذه اليه :

صنيعة الشيخ مولانا وصاحبه
وغرس انعامه بل نشء نعمته
يشكو اليه ادام الله مدته
آثار بثر تبدى فوق جبهته
فامنن عليه بحسم الداء مغتنما
شكر النبي له مع شكر عترته

فاجاب الشيخ الرئيس عن ابياته ووصف في جوابه ما كان به برؤه من ذلك فقال :

الله يشفي وينفي ما بجبهته
من الاذى ويعافيه برحمته
اما العلاج فاسهال يقدمه
ختمت آخر ابياتي بنسخته
وليرسل العلق المصاص يرشف من
دم القذال ويغني عن حجامته
واللحم يهجره الا الخفيف ولا
يدني اليه شرابا من مدامته
والوجه يطليه ماء الورد ممتصرا
فيه الخلاف مدافا وقت هجمته
ولا يضيق منه الزر مختنقا
ولا يصيحن ايضا عند سخطته
هذا العلاج ومن يعلم به سيرى
آثار خير ويكفي امر علته

انها شكوى مريض ... ! وصفة طبيب لم تكتب بالصيغة اليونانية ولا السريانية ولا الفارسية وانما كتبت باللغة العربية .. وبلغة الاحساس المرهف بلغة الشعر ... لقد كان ابن سينا على علم باللغات الاعجمية ولكنه لم يصف علاجه الا بالتعابير العربية التي اتقن علمه بها وحبر كتبه فيها فترجمت الى معظم لغات العالم وظلت زهاء ستة قرون المرجع العالمي في الطب ، واستخدمت كاساس للتعليم في جامعات فرنسا وايطاليا وظلت تدرس في جامعات مونبلييه حتى اواخر القرن التاسع عشر ...!

وانه لمن دواعي البشر ان استوحي من كلمات طبيبنا العظيم القوة على معالجة موضوع نحن في امس الحاجة اليه انه تعريب مصطلحاتنا الطبية وان شئت فقل نقل علومنا الطبية . وقد كان لي شرف المثول على هذا المنبر في مؤتمرين اثنين الاول في بيروت والثاني في عمان وقد اتخذت فيهما التوصيات

والقرارات التى تناسب ما نحن بصدد بحثه آنذاك على ان تلتزم به الحكومات العربية وتنسق العمل المؤدي اليه والى حسن تنفيذه ..

ودارت الايام واقف اليوم للمرة الثالثة لا لاردد ما قلته فى المرة الاولى على لسان المتنبي :

ولكن الفتى العربي فيها
غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها
سليمان لسار بترجمان

ولكن لاقول كلمتي فى هذا الشان يحفزني الى القائها عروبة جبلت بدمي وايمان بأن الفرصة مؤاتية ليكون لابناء الاسنان العرب اول منطلق لهم نحو تامين نقل علومهم بالجهد والصبر والتنظيم فنحدو بذلك حدو الاقوام التى تحترم نفسها وتحافظ على لغتها وكرامتها .

واحمد الله ان سهل لنا هذا اللقاء الاخوي فالف بين قلوبنا وقابل بيننا لنتبادل الراي ونتداول البحث والمشورة ، فندني الينا علم الانسانية ليكون عونا لنا على خدمة شعبنا من عنت المرض وصولة الداء.

ولكني اتساءل كيف يمكن ان ندني علم الانسانية الينا ؟

وكيف يمكن ان ناخذه وننقله ونتفاعل معه ونبتكر فيه ؟

ان الامر ميسور لتحقيق ما نساله فقد افاء الله على امتنا العربية بكثير من العلماء الافذاذ الذين اتقنوا علمهم فى وطنهم واختصوا بجزء منه فى البلاد الاجنبية وقدمت لهم المساعدات المستطاعة ليقطفوا الثمار الضرورية لنهضة علمنا العربي وليكونوا اهلا للبحث والارشاد .

وعلى الرغم مما يظهره بعضهم من كبرياء وصلف على ثقافات غيره ، وادعائه بان يكتفي بالمنهل الذى نهل منه ، على الرغم من كل ذلك فهناك فئة واعية لمتطلبات وطنها وحاجاته ، تود ان لا تتاثر شخصيتنا الى الحد الذى يفقدها اصالتها فندرس بضع سنين فى بقعة من هذا العالم لا يجيز لنا ان نعتمد فى راينا واقوالنا وسلوكنا على ما راينا وسمعنا فى النالها ونتناسى ما لنا من تقاليد وعادات .. ولعل لهؤلاء البعض عذرهم ان تنكروا لذواتهم ... بيد انه لا عذر لهم ابدا ان هم وازنوا بين مستوى الامة التى درسوا عنها او فيها ... وبين مستوى بلادهم لان عليهم رسالة يجب ان يؤدوها الى اهليهم والى وطنهم والى شعبهم ، واهم ما فى هذه الرسالة هو نقل العلوم التى اختصوا بها الى لسانهم الاصلي ليبنوا مع البنائين لبنات حضارتنا العربية وستكون باذن الله منارا للانسانية ورحمة للعالمين ...

وانني اقول لزملائنا الكرام الذين كانت جل بترك راسه حيث تعلم وقدمه حيث يعيش ... **وانه لمن الغريب حقا ان يتنكر احد لفئته وينفصل عن تاريخه ومقدساته** ويترك الياس يدب الى قلبه يوهن من عزائمه يتانف ويتضجر ولا يضع الحلول البناءة التى تخرجنا مما نحن فيه ولله در شوقي حين قال :

مثل القوم نسوا تاريخهم
كلقيط عيي فى الناس انتسابا
او كمغلوب على ذاكرة
يشتكي من صلة الماضي انقضابا

وانني اقول لزملائنا الكرام الذين كانت جل دراستهم بلغة اجنبية ان **يمارسوا الترجمة والتعريب** وان ينموا احساسهم بتذوق مصطلحات لغتهم العربية ليكون مجهودهم مثمرا مفيدا عظيما واني اعتقد ان من واجبهم ان يترجموا كما ان من واجب الدولة ان تنتقي منهم المترجمين المبرزين لتدفع رواتب سخية كما كان ايام المامون فيحكى عنه انه كان يدفع رواتب خيالية لكبار المترجمين،اذ يقال ان راتب كل من حنين بن اسحق وحبيش الاعسم وثابت بن قره بلغ خمسمائة دينار فى الشهر، وهو مبلغ لا تكاد نتصوره لمترجم حتى يومنا هذا ! ويقول ايضا انه كان يوزع فى كل اسبوع يوم الثلاثاء جوائز عن الاعمال العلمية والادبية الممتازة . واصبحت الكتابة والاشتغال بالعلوم والآداب من اعظم المهن حتى لقد ذاع المثل القائل : الكتابة اشرف المهن بعد الخلافة .

لقد سمعتم حتى الآن محاضرات عديدة باللغة العربية ، فهل شعرتم بغرابة او استهجنتم احداها ام انكم وجدتم فيها لذة ومتعة ووقعا محببا الى نفوسكم .

الا تتمنون معي ان تكون لكم القدرة على الاداء بهذه اللغة الحبيبة ؟. قولوا بربكم الم تمازج نفوسكم وتهفوا اليه افئدتكم ؟

اننا وايم الحق يجب ان نعرف واقع لغتنا الذى هو **استمرار لواقع لغوي سبقه مع وجود** اختلاف هين بين كلا الواقعين ، شان الكائن الحي المتطور يفيد من تقدم الزمن ، ومن صلاته بالآخرين والأكد لكم ضرورة رعاية هذا الواقع اللغوي فى الوطن العربي وتناوله بالدراسة على ضوء ما سبقه مما ورد موصوفا فى المراجع لتكتمل بذلك حلقات اللغة الفصحى ، ونحس نحن العرب اننا امة ينبغي ان تعتز بماضيها اذا كانت تريد ان تعز فى حاضرها وتؤمن بأن الفصحى التى حملها العرب الاولون ليفتحوا بها اوطانا ويغزوا بها لغات ورطانات فى الشرق والغرب **هي الرابطة الوحيدة التى يمكن ان تجمع العرب فى** كل مكان ، وقد اورد المفكر الفرنسي الكبير الاستاذ جاك بيرك فى محاضرة له على مدرج جامعة دمشق خلال شهر تشرين الثاني 1967 قوله ((**ومن الثوابت ايضا اللغة** واقول : ان التفسيرات الاقتصادية اذا كانت تنكر اهمية اللغة ، فليس ذلك ممكنا لواحد مثلي عاش مع الحضارة العربية ، ووجد ان اللغة العربية تضمن منذ عصر ما قبل الاسلام وحتى اليوم البنى ذاتها ، تلك البنى اللغوية التى هي فى الوقت ذاته بنى معنوية او خلقية واجتماعية فمن **حق المجتمعات العربية ان تكافح فى سبيل الحفاظ على لغتها الاصلية** بصورة خاصة . وما يمسكها بهذه اللغة الا نوع من التعلق بما أسميه الثوابت التى تمكننا من اجراء بعض التبدلات حسب ضرورات كل عصر)) .

اسمحوا بدعوتكم لسماع نص صغير لوصف تشريح الغزالة فى كتاب حي بن يقظان لابن الطفيل الاديب والطبيب الاندلسي اذ يقول :

(فصار لا يدنو اليه شيء منها سوى الظبية التى كانت ارضعته وربته ، فانها لم تفارقه ولا فارقها، الى ان اسنت وضعفت ، فكان يرتاد بها المراعي الخصبة ، ويجتني لها الثمرات الحلوة ويطعمها .

وما زال الهزال والضعف يستولي عليها ويتوالى الى ان ادركها الموت ، فسكنت حركاتها بالجملة وتعطلت جميع افعالها ...

فلما نظر الى جميع اعضائها الظاهرة ولم ير فيها آفة ظاهرة ـ وكان يرى مع ذلك العطلة قد شملتها ولم يختص بها عضو دون عضو ـ وقع فى خاطره ان الآفة التى نزلت بها ، انما هي فى عضو غائب عن العيان ، مستكن فى باطن الجسد ، وان العضو لا يغني عنه فى فعله شيء من هذه الاعضاء الظاهرة . فلما نزلت به الآفة عمت المضرة وشملت العطلة ، وطمع لو انه عثر على ذلك العضو وازال ما به ، لاستقامت احواله وفاض على سائر البدن نفعه ، وعادت الافعال الى ما كانت عليه ...

فعزم على شق صدرها وتفتيش ما فيه ، فاتخذ من كسور الاحجار الصلدة وشقوق القصب اليابسة ، اشباه السكاكين وشق بها بين اضلاعها حتى قطع اللحم الذى بين الاضلاع. وافضى الى الحجاب المستبطن للاوضاع فرآه قويا ، فقوي ظنه بأن مثل ذلك الحجاب لا يكون الا لمثل ذلك العضو بانه اذا تجاوزه لقي مطلوبه فحاول شقه ، فصعب عليه لعدم الآلات ولانها لم تكن الا من الحجارة والقصب فاستجدها ثانية واستحدها وتلطف فى خرق الحجاب حتى انخرق له ، فافضى الى الرئة فظن اولا انها مطلوبه فما زال يقلبها ويطلب موضع الآفة بها ...

وجرد القلب فرآه مصمتا من كل جهة فنظر هل يرى فيه آفة ظاهرة ؟ فلم ير فيه شيئا فشد عليه يده فتبين له ان فيه تجويفا ، فقال لعل مطلوبي الاقصى انما هو فى داخل هذا العضو وانا حتى الآن لم اصل اليه فشق عليه فراى فيه تجويفين اثنين : احدهما من الجهة اليمنى والآخر فى الجهة اليسرى والذى فى (الجهة) اليمني مملوء بعلق منعقد والذى فى (الجهة) اليسرى خال لا شيء فيه فقال :

لن يعدو مطلبي ان يكون مسكنه هذين البيتين » .....

... انها وربي الجزالة والفصاحة والعلم ، فما **احلى هذا الجرس واقوى هذا البيان واشرق هذه المعاني ، فهل نترك هذه اللغة القوية لنلحق بالرطانات الاعجمية** . فتعالوا يا اخواني لنرجع الى فصحانا ففيها الخير العميم ؟ ....

نحن لم نعدم الرجال المخلصين والعلماء النابغين من ذوي الاناة والهدف البعيد الذين قدموا الحلول البناءة ليأخذ العلم العربي مجراه ويصبح مسايرا

لنهضة العلم العالمية فأقروا مبدأ الترجمة والتعريب وترجموا حسب امكانياتكم الفردية مصطلحاتنا العلمية واستنكرا تلك الصيحات التي تعزو الى اللغة العربية قصورها عن احياء كلمات تنسجم مع هذه المصطلحات او توليد كلمات لها معان تلبي حاجة تطور العلم الذي يطالبنا كل يوم باختراع جديد وكشف حديث .

ومن نافلة القول ان نتجاهل واقعنا اللغوي الخالد واقع العربية الفصحى التي نصوغ بها شعرنا ونثرنا وحديثنا الجاد وحياتنا الراقية ، العربية التي فرضت وجودها منذ وجدت واستوت على المثال الذي ندرسه وننطقه فمنذ فجر التاريخ هذه اللغة لم ينقطع حتى الآن استعمالها من الالسن الناطقة بالضاد وساعد على استمرار هذا الوجود ذلك التراث الادبي العظيم وفي قمته **القرآن الكريم ، تلكم المعجزة البيانية الخالدة التي كفلت للفصحى دوامها وبقاءها** بدلا من تفرقها الى لغات شتى ، كما منحتها استقرارا في الصورتين اللفظية والتعبيرية على مدى القرون وليس من المقبول ان يقال بأن حديثنا العربي لغة متكلفة مصنوعة بل هو عادة وسجية تناولتها يد التعليم والتربية بالتهذيب والتعديل فهي عملية لابد منها لكل ناطق بلغة حية . فالانكليزي مثلا يتلقى من ابويه لغة الحديث الجارية ولكنه يهذب نطقه ويقوم لسانه في مراحل التعليم المختلفة ليستطيع دراسة آداب لغته ومواصلة البحث العلمي بها .. ولا يمكن القول بأن الطريقة التي يلقنها الطفل في الريف الانكليزي هي الصورة المثالية لنطق الانكليزية التي يريدها المجتمع الانجليزي كلغته وللناطق بها ، وكذلك اللغة الروسية والفرنسية والالمانية وغيرها . ولا يمكن القول بأن اللغة المدروسة في معاهد التعليم هناك مصنوعة متكلفة لمجرد اختلاف ما بينها وبين سابقتها .

لا احب ان يفهم من قولي انني امج تعلم اللغات الاجنبية ولكني احب ان اقرر ان **الضرورة ملحة لاتقان اللغات على اختلافها وان تكرس كلها لانماء مدارسنا وابحاثنا العلمية التي شحت مياهها وهي بحاجة الى روافد .**

طالعت في الصحف من زمن قريب توصيات اللجنة الصحية الدائمة لجامعة الدول العربية فكان من جملة هذه التوصيات ان تهيىء الدول العربية جميع الاجراءات الكفيلة **بجعل اللغة العربية لغة التعليم الطبي وفسح المجال لطالب الطب لاتقان لغة اجنبية واحدة على الاقل تساعده على متابعة العلم وتطوره** . والعمل على تنسيق نظم التدريس بين مختلف البلاد العربية وتبادل المدرسين بين البلاد العربية حسب الامكانيات وايجاد اتحاد لكليات الطب في البلاد العربية يسعى الى تحقيق هذه التوصيات .

لا تتحقق هذه التوصيات بالنسبة لنا الا بتوحيد جهودنا على مستوى وطننا العربي الكبير وعلى الخصوص البلاد التي تملك كليات لطب الاسنان وذلك بانشاء **مؤسسة علمية لطب الاسنان لانها ضرورة من** ضرورات بحثنا العلمي الحديث لان عددا كبيرا من العلماء في شتى انحاء العالم ينشرون تيارا ضخما من المعلومات حول ابحاثهم . وهذه المعلومات ترسل عادة على شكل تقارير ونشرات واوراق ومقالات ومجلات ، وان تطور بحوثنا وتشعبها جعل الاطلاع على ما يجري من ابحاث البلدان الاخرى ضرورة لابد منها ، هذه الضرورة بالذات تدفعنا الى وضع برنامج خاص بالترجمات العلمية ، حتى يتسنى للمترجمين ترجمة هذا السيل من الابحاث العلمية الواردة من الجامعات العلمية من الشرق والغرب على السواء . ولا اكون مخطئا اذا قلت انه لا يصلح علم آخر هذه الامة الا بما صلح به علم اولها فان دار الحكمة التي انشاها المامون التي كانت **مكتبة ومؤسسة للترجمة** كانت اجمل هدية تتفق ومزاج الجمهور العربي في ذلك التاريخ. ونعلم ان دور الكتب العربيةفي ذلك الوقت نمت في كل مكان نمو العشب في الارض الطيبة ففي عام 891 م احصى مسافر **عدد دور الكتب العامة في بغداد باكثر** من مئة . وبدات كل مدينة تبني لها دارا للكتب يستطيع اي انسان استعارة ما يشاء منها وان يجلس في قاعات المطالعة ليقرا ما يريد ، كما يجتمع فيها المترجمون والمؤلفون في قاعات خصصت لهم يتجادلون ويتنافسون كما يحدث اليوم في ارقى الاندية العلمية.

فمكتبة صغيرة كمكتبة النجف في العراق كانت تحوي في القرن العاشر اربعين الف مجلد بينما لم تحو اديرة الغرب سوى اثني عشر كتابا ربطت بالسلاسل خشية ضياعها . وكان لكل مسجد مكتبته الخاصة ، بل انه كان لكل مستشفى يستقبل زواره قاعة صفت على رفوفها **الكتب الطبية** الحديثة الصدور تباع لتكون **مادة لدراسة الطلاب ومرجعا للاطباء** ، يقفون منه على آخر ما وصل اليه العلم الحديث . فاين هي تلك المكتبات الحافلة بالكتب العربية ... الكتب التي لم تكن مطبوعة على آلة بل

نسخت باليد وبذل فيها كاتبوها مجهودا مضنيا دام شهورا طويلة واحيانا بضع سنوات ، ولم تكن تلك الكتب رخيصة الثمن فقد تقاضى ابن الهيثم مثلا 75 درهما اجرا لنسخ مجلد من مجلدات اقليدس ، وهو مبلغ لا يستهان به عاش منه ابن الهيثم ستة اشهر . ولقد ترك ابن الجزار الطبيب والرحالة القيرواني عند وفاته 250 طنا من لفائف رق الغزال التى كتبها بنفسه .

هكذا كانت مؤسسات الترجمة والتعريب عند اجدادنا فهل اعددنا مثلها ؟

وهل فى مكنة امة ناهضة ترغب فى مسايرة العصر ان تتخلف عن ادراج علم العالم الى لغتها ليكون العلم فى متناول كل شغوف بالمطالعة والبحث . وجل ما يميزنا فى الوقت الحاضر عن اجدادنا انهم وجدوا علما سابقا فاقبلوا على نقله ثم زادوا عليه واذابوه فى بوتقة علمهم وعبقريتهم ورفدوا الانسانية بابتكاراتهم وابحاثهم .. اما نحن فنجد علوما تسير معنا وتسبقنا فلذا كان من الضروري الاطلاع عليها وعلى كل ما يصدر منها لنا بعدئذ جولات فى مسيرة الحضارة الحديثة .

ومما يلاحظ فى زمننا الحاضر ان الاختصاص اخذ يلعب دورا هاما فى تطور الامم ، وعلى الامم التى ترغب بالبقاء والاستمرار ان تتجه كليا نحو التخصص العلمي فى شتى ميادينه والانسان المختص فى عالم اليوم هو الرجل الذى يعرف كثيرا وعليه ان يقرأ الكثير مما يكتب حول حقل معين من ميدان اختصاصه والا فلا يمكن اطلاق اسم (الاختصاص) على علمه وبحثه .

ولكن هناك صعوبة تواجه الاختصاص فى شتى البلدان وهي ان الابحاث العلمية التي تنشر تكون عادة مكتوبة بلغات مختلفة متعددة ولا يمكن لعالم مهما كان عظيما ان يتجاهل ابحاث ومكتشفات العلماء الآخرين ...

وكذلك لابد ان يعمل برنامج للترجمة والتعريب على نقل شتى الابحاث العلمية الجارية الى اللغة العربية ووضعها تحت تصرف العلماء الباحثين فى شتى المخابر والمراكز والمعاهد والجامعات العربية . ولابد ان يكون لهذا البرنامج استقلال ذاتي يحشد فيه اكبر عدد من العلماء المختصين بالترجمة ولابد من ايجاد جماعات تتكلم لغات اجنبية متعددة فنستطيع ان نترجم عددا كبيرا من الوثائق والابحاث الاجنبية . وان يكون هؤلاء المترجمون فى مستوى علمي لا يقل عن مثيلهم فى البلاد الاخرى.

ولما كان من الصعب ان يوجد عالم واديب فى آن واحد ، ومن الصعب ايضا ان يوجد مترجم مارس البحث العلمي فى لغتين مختلفتين فى آن واحد لهذا السبب فان مخطوطة الترجمة بعد ان ينتهي منها المترجم يجب ان تحول الى قسم التحرير لينظر فيها قبل ان تدفع الى المطبعة فتمر على قسم التحرير العلمي حيث يعاد النظر بالتعابير العلمية التى تتطلب الدقة وقد يستدعى المترجم للادلاء ببعض الايضاحات والاتفاق معه على المصطلحات عندها تحول المخطوطة الى القسم الادبي حيث تجري التصحيحات بالاتفاق بين كل من المحرر الادبي والعلمي .

ولكي نقضي على الفوضى فى وضع المصطلحات العلمية والطبية او التخلص من اوصابها واوشابها يجب حصر جميع المصطلحات التى وضعت وانتخاب الاصلح منها وان تؤلف لجنة من البلغاء يجرون هذا الانتخاب وان تكون المعاجم الموجودة حاليا هي المنطلق الاول فى ذلك كالمعجم الكثير اللغات من الافرنسية الى العربية ومعجم يوسف حتى من الانكليزية الى العربية او اعتماد قاموس الاتحاد الدولي لطب الاسنان (Dental Lexicon) وغيرها .

ولابد كذلك ان نقف على كثير من الابواب التى طرقها كتابنا وادباؤنا الاولون لناخذ من تعابيرهم ما يخدم مجريات علمنا الحديث ويعزز لغتنا ويقويها . فاسمحوا لي ان اسمعكم شيئا مما ذكره الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين قال :

« قال صحت التجربة وقامت العبرة على ان سقوط جميع الاسنان اصلح فى الابانة من الحروف، منه اذا سقط اكثرها وخالف احد شطريها الشطر الآخر .

وقد راينا تصديق ذلك فى افواه قوم شاهدتهم الناس بعد ان سقطت جميع اسنانهم وبعد ان بقي منها الثلث او الربع .

وكان عبد الله بن ابي غسان ظريفا يصرف لسانه كيف شاء ، وكان الالحاح على القيء قد برد اسنانه ، حتى لا يرى احد منها شيئا الا ان تطلع فى لحم اللثة او فى اصول منابت الاسنان .

وكان سفيان ابن الابرد الكلبي كثيرا ما يجمع بين الحار والضار فتساقطت اسنانه جمع ، وكان فى ذلك كله خطيبا بينا .

وقال اهل التجربة ، اذا كان فى اللحم الذى فيه مغارز الاسنان تشمير وقصر سمك (التشمير : التقليص ، والسمك بالفتح الارتفاع) ذهبت الحروف وفسد البيان » .

كما يجب ان **تقوم لجنة ثانية بحصر المصطلحات العربية المبثوثة فى معاجم اللغة العربية** وارى ان يكون الانطلاق من كتاب المخصص لابن سيده وكتاب خلق الانسان لابن ثابت وما يشبههما .

ولابد ان تأخذ هذه اللجان بعين الاعتبار اصول التعريب من حيث التعريب اللفظي او المعنوي او توليد معان جديدة او نحت كلمات جديدة . ولا يجوز ان تنحت كلمة الا اذا اعيتنا وسائل اللغة عن ايجادها فى بطون القواميس وعلى سبيل المثال فقد ترجمت كلمة (La Pyorrhée) او (Parodontium او Periodontium) بكلمة (**الرعال**) واعتمد فى ذلك على نحت كلمة (رعل) التى ترمز حروفها الراء الى الرباط والعين الى العظم واللام الى اللثة .

فلو فتحت القاموس ـ وليكن قاموس المحيط للفيروز آبادى ـ لوقفت فى هذه الكلمة على تفسير طويل لها من معانيها : مثلا رعله كمنعه طعنه طعنا شديدا ، والرعل انف الجبل ومن الرجل ثيابه ويقال لما تهدل من الثياب ارعل وكذا ما انثنى من العشب وطال الخ ...

اذن هناك معنى لهذه الكلمة ولا يجوز ان ننحت كلمة لها اصل فى اللغة .

اما لو اعتمدنا كلمة النساع : الفيناها مشتقة من نسع كمنع او نساع ونسوع ونسعت الاسنان كمنع نسعا ونسوعا : انحسرت اللثة واسترخت ، كنسعت وثنيتاه خرجتا من العمر والمراة نسعا ونسوعا طال ظهرها او سنها او بطنها . وهذا المعنى قريب من المعنى المطلوب .

ولنأخذ مثلا آخر لما ورد ذكره على لسان العرب :

فلو رتبت الاسنان كما نطق بها العرب لاصبح هذا الترتيب على النحو التالي :

الثنية والرباعية والناب والضاحك والصارض والطاحن والرحى والناجذ وهذه الاسماء خير من الاسماء المركبة .

ولو اخذت كلمة **القصم** لامكن استعمالها فى انكسار السن عرضا . فيقال : رجل اقصم الثنية وامراة قصماء من قوم قصم .

وكذلك كلمة **الانقياض** لامكن استعمالها لانشقاق السن طولا فيسقط نصفها او بعضها . وكلمة **القضم** فيقال قضمت اسنانه تقضم قضما ، وذلك اذا انكسرت اطراف اسنانه وتفللت .

وكلمة **الحبر** : وهو صفرة تركب الاسنان ، فاذا كثرت وغلظت ثم اسودت او اخضرت فهو القلح وامراة قلحاء وقوم قلح .

وهناك كلمات لا حصر لها يمكن الاستفادة منها او احياؤها وليس لدي وقت كي استرسل فى سردها وبيان جمالها وتوافقها واني اختم كلامي بابيات لابن سينا حكيمنا العظيم يقول فيها :

هذب النفس بالعلوم لترقى
وذر الكل فهي للكل بيت

انما النفس كالزجاجة والعلم
سراج وكلمة الله زيت

فاذا اشرقت فانك حي
واذا اظلمت فانك ميت

والسلام عليكم ورحمة الله .

العرب والحضارة الانسانية

الدكتور محمد معروف الدواليبي

لقد استقر الرأي العلمي اليوم عند مؤرخي الحضارات القديمة على ان الحضارة الانسانية الام التي نشأت فيما قبل التاريخ انما هي حضارة « مثلث الحضارة القديمة » كما سماه جورج شفاينفورت Georges Schweinfurth ويعني به اليمن وحضرموت على راس المثلث ، ووادي النيل في مصر في احد ساقيه ، واراضي الرافدين في العراق في الساق الثاني ، وما بين هذين الساقين في بلاد الشام (1) في قاعدة المثلث .

كما استقر الراي العلمي على ان هذه الشعوب كلها :

ا ـ ترجع الى اصول عربية لا شك فيها .

ب ـ وانها نزحت تحت ضغط عوارض الطبيعة في جنوبي الجزيرة العربية عندما اشتد جفافها وضاقت عن اهلها .

ج ـ وان هذه الشعوب خرجت الى مناطق هجرتها متحضرة ومالكة لناصية الحضارة ، ولذلك تشابهت حضاراتها في اصولها .

د ـ بل جزم علماء الآثار اخيرا اعتمادا على دراساتهم العلمية في السنوات الاخيرة في البلاد العربية ، وذهبوا الى ابعد من ذلك وقالوا : استطاعت الابحاث الاثرية ان تعد خمس موجات منها ، وان تؤكد ان ءاخرها واقواها كانت موجة العرب المسلمين قبل اربعة عشر قرنا ، **وانه لا ريب قد سبق هذه الهجرات العربية التاريخية الخمس هجرات عربية قديمة اخرى قبل التاريخ : امتدت على افريقية الشمالية والبلقان وايطاليا واسبانيا وفرنسا وايرلندا وبلاد الشمال (2)**، بل ذهبت مجلة « اللسان العربي » في العدد الثالث منها الصادر في شهر آب من سنة 1965 ، وفي الصفحة 130 الى ما يدل على ان القرطاجيين الكنعانيين ـ البونيين ـ قد وصلوا الى البرازيل في خط هجرتهم القديمة في مطالع التاريخ ، وهذا ما قد اثبتته البحوث العلمية الحديثة : من وصول العرب الى امريكة في مطالع العهود التاريخية (3) .

والمشكلة التي اعترضت هذا الجزم هي :

ا ـ اذا كانت الحضارة الانسانية الام انما انطلقت من جزيرة العرب .

---

1) كلمة « الشام » تعني بلاد الشمال من شبه الجزيرة العربية ، وهي تشمل اليوم ما هو معروف بفلسطين والاردن وسوريا ولبنان .

2) « مجلة الحوليات الاثرية السورية » ، المجلد السابع سنة 1957 ، الصفحة 4 ، الدكتور سليم عبد الحق مدير الآثار ؛ وكتاب « الايتروسك في غربنا وفي اصولنا الفرنسية » لمؤلفه الفرنسي « هيليردو بارانتون » Les Etrusques en notre Occident et nos origines françaises . طبع باريس سنة 1946 ، المكتبة الشرقية والامريكية لصاحبها « ميزون نوف G. P. Maisonneuve الصفحة 1 ، وكتابنا « قلعة طروادة التاريخية » طبع بيروت سنة 1964 ، مكتبة لبنان ، الصفحات 54 ، 56 ، 61 ، 71 .

3) انظر كتابا « المدخل الى التاريخ العام للقانون » الطبعة الثانية ، طبع دار الفكر بدمشق سنة 1963 ، الصفحة 541 .

ب ـ واذا كانت كلمة « العرب » ومادتها كما جاءت في اللغة العبرانية السامية انما تدل فقط على الصحراء والجفاف والبدو (1) .

ج ـ واذا كانت الحضارة لا يمكن ان تنشأ في صحراء جافة ، فكيف والحال كما ذكرنا يمكن الجزم بنشوء الحضارة الانسانية الام في جزيرة العرب الصحراوية الجافة ؟ ، فان هذا مما يتنافى مع شروط الحضارة .

وللجواب على ذلك لابد من الاشارة الى البحوث العلمية الحديثة الجازمة التالية :

اولا ـ نظرية البحاثة « كيتاني » حول انواء جزيرة العرب فيما قبل التاريخ ، وانها كانت اجواء ممطرة ، وان ارضها كانت ممتلئة بالانهار .

ثانيا ـ معنى كلمة « العرب » ومادتها في اللغة العربية الفصحى المؤيدة لذلك .

ثالثا ـ بطلان مزاعم العبرانيين فيما سجلوه في كتب لغتهم من معنى لكلمة « العرب » ومادتها : من انها تعني الصحراء والجفاف والبدو .

رابعا ـ نصوص من التاريخ القديم الدالة على رطوبة الجزيرة العربية فيما قبل التاريخ .

خامسا ـ نصوص القرآن الكريم عن انواء الجزيرة الممطرة في عهد العرب البائدة ، وكثرة الانهار في اراضيها .

سادسا ـ واخيرا نصوص الحديث النبوي في ذلك ايضا .

نظرية البحاثة كيتاني Ceatani

لقد دلت البحوث والدراسات الحديثة التي قام بها السياح والعلماء عن بلاد العرب على ان تغيرا كبيرا قد طرأ على جوها ، وان هذا الجفاف الذي يكتنف هذه البلاد في ازماننا لم يكن على النحو الذي نعرفه في العصور التي سبقت الاسلام كثيرا (2) .

وكان للبحاثة « كيتاني Ceatani » الفضل في لفت انظار العلماء الى هذه الظاهرة الهامة : ظاهرة التغير الذي طرأ على جو بلاد العرب ، والجفاف الذي حل بها في اواخر الدورة الجليدية الرابعة الاخيرة .

ففي الوقت الذي كانت فيه معظم النواحي الاوربية وشمالي آسية تغطي الثلوج ارضها ، كانت جزيرة العرب ذات جو معتدل ، وامطار غزيرة ، واشجار وزروع .. ثم اخذ الجو يتغير في بلاد العرب ، ففقد الجو رطوبته ، وسارت البلاد فيها بصورة مستمرة وبطيئة نحو الجفاف منذ اكثر من اربعة عشر الف سنة ، فاثر ذلك بالطبع في حياة سكانها وفي حياة حيواناتها ونباتاتها : فانقرض ما لم يتمكن من تكييف نفسه مع المحيط الجديد ، وظهرت الحاجة الى الهجرات ، فكانت الهجرات التي نتحدث عنها الآن ، وخاصة بعد ان جفت انهار الجزيرة وتركت لنا آثارها وهي الاودية ، وقد كان بعضها انهارا عظيمة في وقت من الاوقات (3) .

وقد تصور « كيتاني » بلاد العرب في الدورة الجليدية الاخيرة جنة بقيت محافظة على بهجتها ونضارتها مدة طويلة ، وكانت سببا في رسم تلك الصورة البديعة في مخيلة كتاب التوراة عن « جنة عدن » ، وان جنة عدن المذكورة في العهد القديم هي هذه الجنة التي كانت في نظر « كيتاني » في داخل بلاد العرب (4) ، والتي يقول عنها في الجملة : انها بلاد كانت كثيرة الامطار ، وكثيرة الانهار ، وكثيرة الاشجار .

ويؤيد هذه البحوث العلمية ان كلمة « العرب » وجميع مادتها ومشتقاتها انما تدل :

ـ على المياه الكثيرة ، الصافية ، الشديدة الجريان .

ـ او على الانس وعلى الصفاء الملازمين للمياه الكثيرة الصافية .

وهكذا فاننا نورد فيما يلي موجزا عن هذه المعاني في معاجم اللغة العربية :

---

1) تاريخ العرب ، لجواد علي ، الجزء الاول طبع بغداد سنة 1951 ، الصفحة 173 ، وكذلك تاريخ العرب مطول ، فيليب حتي ، الجزء الاول ، طبع بيروت سنة 1958 ، الصفحة 53 .
2) تاريخ العرب لجواد علي ، الجزء الاول ، الصفحة 97 ، طبع بغداد سنة 1951 .
3) تاريخ العرب السابق ، الجزء الاول ، الصفحات 158 ـ 159 .
4) نفس المرجع السابق ، الصفحة 159 .

ـــ « العربة » النهر الشديد الجري ، وجمعها « عربات » . وما كان المكان ليصلح منزلا للقوم الا اذا كان فيه ماء ، ولذلك كثرت الامكنة التي حملت في جزيرة العرب اسم « عربة » مثل باحة اسماعيل في مكة ؛ فقد سميت « عربة » لوجود ماء زمزم فيها ، وهكذا لم تلبث صيغة الجمع لكلمة « عربة » اى عربات ان اصبحت علما فى اللغات العربية القديمة على مهد العرب فى جزيرتهم لكثرة المياه والانهار فيها ، والى هذا الاسم نسبوا وسموا عربا باسم بلدهم « العربات» ولا لمعنى « البداوة والجفاف والصحراء » كما نقل عن العبرانيين (1) .

ـــ و « العربات » سفن رواكد كانت على مياه دجلة .

ـــ و « العرب » الماء الكثير الصافي .

ـــ و « والأعراب » الذين يرتادون الكلأ ويتتبعون مساقط الغيث ومظان المياه ، لا مناطق الجفاف والصحراء .

ـــ و « التعريب » الاكثار من شرب الماء الصافي

ـــ و « عرب البئر » كثر ماؤها .

ـــ و « اعرب بحجته » اذا افصح بها حتى عبرت عما يريد ، وكانها اصبحت كالماء الصافي الذي لا يخفي ما فيه .

ـــ و « امراة عروب » اى متحببة الى زوجها ، وذلك لصفاء مزاجها كما هو شان الماء الصافي .

ـــ و « عربت المعدة » اى فسدت وسالت كالماء

وان معاني هذه المفردات تدل بأجمعها على ان لكلمة « العرب » ومشتقاتها ومسمياتها صلة بالماء الكثير الصافي ، وليس من المعقول ان يطلق العرب على هذه المعاني كلها كلمة لا تدل مادتها في اللغات السامية الا على الجفاف والصحراء كما زعم العبرانيون !!

بطلان مزاعم العبرانيين

لقد زعم المستشرقون اليهود بأن معنى كلمة « العرب » ومادتها فى اللغة العبرانية انما يعني فى الاصل « الجفاف والصحراء والبدو » (2) ، وان كلمة « عرب » ماخوذة من مادة « عرب » بمعنى « امحل او اجدب » فى كثير من اللغات السامية ، وان صيغة « عرابة او عربة » العبرانية استعملت اسما للارض الفقراء (3) .

ولنا على ما وصل اليه المستشرقن فى مصادرهم اليهودية المزعومة ملاحظات اساسية اهمها ما يلي :

اولا ـ اهمال هؤلاء الباحثين لما جاء في اهم اللغات السامية اليوم وهي اللغة العربية والتي يحمل اصحابها وحدهم اسم « العرب » ، وهو اهمال غير مغتفر ولا يدل على حسن قصد ، خاصة وان معنى المادة فى اللغة العربية جاء مخالفا تمام المخالفة لما جاء في اللغة العبرانية ، وان موضوع المخالفة متعلق ببلاد اللغة العربية ، ولا يجوز الحكم على معاني كلماتها الاساسية بمعان مستوردة من لغة غير عربية !

ثانيا ـ ان هذا الخلاف الكبير المتناقض فيما بين اللغتين العبرانية والعربية فى معنى كلمة « عرب » يوجب على الاقل لفت النظر اليه ، وايجاب الاخذ بالمعنى الثابت عند اهل اللغة العربية لا عند اصحاب اللغة غير العربية ، ثم متابعة البحث لمعرفة السبب فى هذا التغاير المتناقض ، ما دامت اللغتان ساميتين، والكلمة كلمة اساسية فى اللغة العربية وفى تاريخها وتاريخ بلادها ، وهذا ما لم يفعلوه بكل اسف !

ثالثا ـ اهمالهم الاخبار التي وردت فى كتب اليونان والرومان وغيرها من النصوص القديمة ، وكذلك ما نقل عن المصريين القدماء (4) ، وكلها كانت تقول بوجود انهار طويلة فى بلاد العرب، وبوجود اخشاب ضخمة فيها ، وبانها « ارض الله » كما سماها المصريون لوفرة خيراتها ونتاج اشجارها من البهار والتوابل ، رغم ان كتب الاخبار القديمة فى ذلك متوفرة

---

1) مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ، طه باقر 172 ـ 174 .
2) تاريخ العرب السابق ، لجواد علي ، الجزء الاول ، الصفحة 173 ، وكذلك تاريخ العرب مطول ، لفيليب حتي ، الجزء الاول ، الصفحة 53 ، طبع بيروت سنة 1958 .
3) تاريخ العرب السابق ، الجزء الاول ، الصفحات، الجزء الثاني الصفحة 189 ، طبع بغداد سنة 1956
4) تاريخ العرب السابق ، لجواد علي ، الجزء الاو ، الصفحات 98 ، 102 ، وكذلك مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ، الجزء الثاني السابق ، الصفحة 189 .

للباحثين كما سوف نعرضه بايجاز في البحث الخاص بها بعد هذا البحث .

رابعا ـ عدم استعراض نصوص العهد القديم « التوراة » فيما يتعلق بالدلالة على مفهوم كلمة «عربة» فيها وهي كثيرة . وكلها تنادي نداء صريحا بان كلمة « عربة » ومادتها انما تدل حصرا على «الارض الجيدة ذات الامطار والعيون والانهار ، وانها تفيض لبنا وعسلا ، في ارض الكنعانيين الساكنين في ارض العربة (1) » . وقد استخرجتها كلها من اسفار العهد القديم فبلغت العشرات (2) ، وهذا ما يبطل ما جاء في كتب اللغة العبرانية من ان كلمة « عربة » انما تدل على « الصحراء والجفاف والبدو والجدب والارض القفراء !! » اذ كيف يجوز للتوراة ان تصف مساكن الكنعانيين في « العربة » بالارض الجيدة ذات الامطار والانهار والعيون واللبن والعسل اذا كانت كلمة «عربة» في العبرانية لا تدل الا على الصحراء والجفاف والجدب ؟ ! . . اللهم ان هذا لبهتان عظيم !! وقد ابى الله الا ان يفضحه وان يظهر بان معنى الكلمة في اللغة العبرية هو نفسه في اللغة العربية .

نصوص التاريخ القديم

واذا ثبت لدينا فيما تقدم من نظرية « كيتاني » العلمية ، ومن نصوص التوراة في « العهد القديم » ان معنى كلمة « عرب » ومادتها انما تدل على الماء الصافي الكثير ، والارض الجيدة الكثيرة الامطار والانهار ، وذلك تماما مثل ما جاء في معنى هذه المادة في اللغة العربية ، وعلى خلاف ما جاء في اللغة العبرانية المجردة من اي دليل علمي ، فلنستمع الآن الى نصوص التاريخ القديم من عهد الفراعنة واليونان والرومان ، وكلها تدل على بقايا رطوبة الجزيرة العربية حينئذ مما هو معروف قبل التاريخ ، على الرغم من اشتداد حلقات زحف الجفاف على الجزيرة الذي كان قد بدا قبل ذلك بآلاف السنين ، ثم ما زالت حلقات تشتد يوما بعد يوم .

فلقد جاء في النصوص المصرية القديمة ما يثبت وجود اخشاب ضخمة في شبه جزيرة العرب، وان المنطقة الواقعة بين « العلا » و « معون » او « معان » من المناطق الصحراوية في الوقت الحاضر من اراضي ثمود قديما ، قد كانت من مناطق الغابات المكتظة بالاشجار ، ولعل ذلك كله هو الذي حمل المصريين القدماء على ان لا يسموا بلاد العرب باسمها الخاص بها ، وانما سموها في كتاباتهم بـ « ارض الله» ، ووصفوها بنتاج اشجارها من البهار والتوابل (3) .

اما الروايات اليونانية والرومانية القديمة فكانت تقول صراحة بوجود انهار طويلة في بلاد العرب (4) .

ـ فان هيرودوت (ابا التاريخ وقد زار بلاد العرب بنفسه) قد ذكر خبر نهر في بلاد العرب دعاه « كورس » ، وقال عنه انه من الانهر العظيمة ، وانه كان يصب في البحر الاحمر ، وان ملك العرب قد كان عمل على جلب المياه من هذا النهر العظيم بثلاثة انابيب من جلود الثيران وغيرها من الحيوانات ، تمتد الى الصحراء على مسيرة اثني عشر يوما من النهر ، فتصب في مواضيع منقورة تستعمل لخزن المياه .

ـ وكذلك ذكر « بطليموس » اسم نهر عظيم سماه « لار Lar » وقال انه ينبع من منطقة «نجران» ثم يسير نحو الجهة الشمالية الشرقية مخترقا بلاد العرب حتى يصب في الخليج الفارسي .

وهكذا فقد تضافرت ايضا الاخبار القديمة لتدعيم حقيقة ما قد كانت عليه بلاد العرب من انواء رطبة وامطار وانهار ، كما جاءت في معنى ذلك نظرية كيتاني ، وكما دعمها المعنى اللغوي لكلمة « عرب » ومادتها في اللغة العربية واللغة العبرانية كما اثبتنا تحقيقه اعلاه .

في نصوص القرآن والسنة

والآن ناتي في آخر المطاف من هذا البحث السريع الجديد الى معجزة الاخبار في ذلك ، وهي

---

1) انظر سفر الخروج ، الاصحاح الثالث ، الفقرتين 7 ـ 8 ،وكذلك سفر التثنية ، الاصحاح الحادي عشر ، الفقرة الثلاثين .

2) انظر كتابي « المدخل الى التاريخ العام للقانون » ، الطبعة الثانية سنة 1963 ، الصفحة 578 .

3) تاريخ العرب ، لجواد علي ، الجزء الاول ، الصفحتان 102 ، 105 ، وكذلك مقدمة في تاريخ الحضارات ، لطه باقر ، الجزء الثاني ، الصفحة92 .

4) تاريخ العرب السابق ، الجزء الاول ، الصفحة 189 .

نصوص القرءار والسنة التي لا تدع بعد ذلك شكا فيما نقلناه عن انواء جزيرة العرب فيما قبل التاريخ ، وان جزيرة العرب كانت ذات انواء رطبة ، وسماء كثيرة الامطار ، وارض كثيرة الانهار .

والمعجزة في هذه النصوص انها تدعم منذ نحو اربعة عشر قرنا وبكل صراحة تلك البحوث والاتجاهات التي انتجتها الدراسات العلمية الحديثة ، تلك الدراسات التي لم يكن من الممكن لها ان تقوم في تلك العصور ، ومن قبل امة امية حين نزل عليها القرءان المعجز في كل شيء .

اما نصوص القراءن الكريم فقد قاربت نحوا من اربعين آية ، وجاءت كلها في معرض التذكير للعرب في عهد الرسول العربي العظيم محمد عليه الصلاة والسلام ، والدعوة الى الاتعاظ بمن تقدمهم من الاقوام اصحاب المياه والجنان والعمران والقوة والآثار:

— من قوم عاد واهل سبأ في اليمن وما حولها من جنوبي شبه الجزيرة العربية ، وخاصة قوم عاد من العرب البائدة ، والذين كانوا اول الخلفاء لقوم نوح بعد كارثة الطوفان (سورة الاعراف ، الآية 69) .

— وكذلك قوم ثمود في شمال شبه جزيرة العرب ومطالع بلاد الشام ، والذين كانوا اول الخلفاء لقوم عاد بعد ان ابادهم الله (سورة الاعراف ، الآيات 72 — 77)

ونكتفي هنا وفي هذا البحث الوجيز بنقل آية واحدة من القرءان الكريم ، وهي الآية السادسة من سورة الانعام ، اذ فيها كل ما نريده من صراحة القول ، وقطعية الدليل ، حينما خاطب العرب في عهد ظهور الرسالة الاسلامية ، وتذكيرا لهم بمن قبلهم من الاجداد في سالف الازمان حين عصوا الله فاهلكهم ، فقال في ذلك : « الم يروا كم اهلكنا من قبلهم من قرن، مكناهم في الارض ما لم نمكن لكم ، **وارسلنا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الانهار تجري من تحتهم** ، فاهلكناهم بذنوبهم وانشانا من بعدهم قرنا آخرين » .

ففي ذلك صراحة ليس بعدها صراحة في وجود الاجواء الممطرة والانهار لدى سكان شبه جزيرة العرب القدماء ، كما قد برهن عليه البحاثة كيتاني بوسائل العلم الحديث ، مما قد تغير مع هلاك اولئك الاقوام ، وهو كما يبدو من اعظم اسباب التمكين لاولئك الاقوام في الارض العربية ، وللحضارة الانسانية الام الاولى فيها مما لم يكن للعرب فيما بعد ، وخاصة في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، حيث كان الجفاف قد استولى على الجزيرة العربية في معظمها .

ويتفق مع نص الآية السابقة من كثرة الامطار والانهار قديما في شبه جزيره العرب ، ما جاء في صحيح مسلم عن ابي هريرة رضي الله عنه انه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض ، وحتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد احدا يقبلها منه ، **وحتى تعود ارض العرب مروجا وانهارا** » . ففي قوله عليه الصلاة والسلام « حتى تعود » صراحة جازمة ايضا بما كان في جزيرة العرب قديما من مروج وانهار لكثرة الامطار، وانها ستعود مروجا وانهارا .

وقد نقل هذا الحديث ايضا الامام احمد في مسنده مبتدئا بلفظ : « لا تقوم الساعة حتى تعود ارض العرب مروجا وانهارا ... » ، وكذلك رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ، وكذلك صاحب كنز العمال .

الخاتمة

وبالاشارة الى اصول هذين المبحثين الاخيرين من نصوص القرءان والسنة الكثيرة مما لا يتسع المقام لاكثر منه ، تكون :

اولا — قد اتينا على آخر الادلة في هذه الدراسة الجديدة حول معنى كلمة « العرب » وجميع مادتها ، وانها الماء الكثير الصافي خلافا لما زعمه العبرانيون في معاجمهم من ان مادة الكلمة تعني الصحراء والجفاف كما نقله عنهم المستشرقون اليهود ، وكما اثبتنا كذبه بنصوص توراتهم المعروف « بالعهد القديم » .

ثانيا — تكون ايضا قد قضينا على المشكلة التي اثارها المستشرقون اليهود امام الجزم العلمي بان الحضارة الانسانية الام انما نشأت من جزيرة العرب ، ومنها انتشرت في بلاد الرافدين في العراق ، وفي وادي النيل في مصر على ايدي الهجرات العربية القديمة فيما قبل التاريخ وبعدها ، من عهد قوم عاد « التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وثمود الذين جابوا (قطعوا) الصخر بالواد ، وفرعون ذي الاوتاد (الاهرامات) » .

ونرجو ان تكون كلمتنا هذه الوجيزة في بحثها خير باعث للقارىء العربي الكريم على العمل لتصحيح التاريخ وتنقيته من كثير من اغلاط المستشرقين اليهود الذين كان معظمهم حربا ثقافية علينا ، قبل ان تكون صهيونية اليوم حربا علينا سياسيا واستعماريا .

عوامل تطور اللغة العربية وانتشارها

الأستاذ عبد الرحمن الكيالي

نستطيع تاريخيا أن نقول بأن اللغة العربية نشأت في الجزيرة العربية مهد اللغة السامية وبناتها . وهي اقدم تلك البنات ، واقربها الى هذه اللغة التي لم يتكلم بلهجاتها الا الساميون بعد ما خرجوا وتفرقوا خارج الجزيرة العربية في تاريخ لم يعلم مداه .

واللغة العربية ، وهي فروع اللغة السامية لم تنشر خارج تلك الجزيرة الا بعد ظهور الاسلام . اذ امتد الفتح الاسلامي في سرعة لم يماثلها فتح آخر ، الى بلاد سورية، والعراق، ومصر، وفارس، وليبيا، وتونس ، والجزائر ، والمغرب الاقصى ، والسودان ، والصحراء ، وبلاد الاندلس ، وجنوبي فرنسه ، وجنوبي ايطاليا ، وصقلية ، ثم الى بلاد الترك ، والافغان ، والسند ، والهند ، وقافقاسيا ، وسائر البلاد التي فتحها العرب ودانت بدين الاسلام ، واشتركت شعوبها مع العرب الفاتحين في بناء حضارتهم وتكلمت بلغتهم وساهمت بنشر ثقافتهم وتعاليم دينهم .

اللغات السامية وما تبقى منها ؟

واللغات السامية لم يبق منها الا العربية ، والعبرانيه ، والسريانية ، والحبشية . وقد كانت البابلية ، والاكادية ، والارامية ، والكنعانية ، والتدمريه ، والسبائية ، تمثل لغة الاقوام السامية الذين تفرقوا في سورية ، والعراق ، وفارس ، وفلسطين، ولبنان، وشمالي افريقيا . وكانت تكتب وتقرا بالحروف التي ابتدعوها، والابجدية التي وضعوها فكانت لكل منها لهجته التي تختلف عن غيره باللفظ ، وبعض المعاني حسب المحيط الذي نشأ فيه وحسب التطور الاجتماعي ، والحضاري ، الذي وصل اليه.

العرب قبل الاسلام :

قال المؤرخ جرجي زيدان في كتابه « العرب قبل الاسلام» (ص 32) (اصطلح المؤرخون في هذا العصران يسموا الشعوب التي تتفاهم بالعربية والسريانية والحبشية والتي كانت تتفاهم بالآشورية والفنيقية ، والآراميه شعوبا (سامية) نسبة الى (سام) ابن نوح لان هذه الامم جاء في التوراة انها من نسله . وسموا لغاتهم (اللغات السامية) . ولا خلاف بان هذه اللغات السامية متشابهة في الفاظها وتراكيبها ، وانها من اصل واحد يسمونه (اللغة السامية) كما تتشابه فروع اللغة اللاتينية ، او فروع اللغة السنسكريتية ، فيقال مثلا ان اللغتين الايطالية والاسبانية اختان امهما اللغة اللاتينية . وان الفارسية والاوروبية اختان امهما السنسكريتية . كما يقال ان اللغات العامة في الشام ومصر ، والمغرب ، والعراق ، والحجاز ، واليمن ، والسودان اخوات ، امها اللغة العربية الفصحى ، فهذه الامهات لا تزال محفوظة ويمكن رد بناتها اليها .

اما ام اللغات السامية فلا وجود لها الآن، وقد زعم فلاسفة اللغة انها العبرية وظن غيرهم انها العربية،

وزعم غيرهم انها انبابلية ، ولا تخرج اقوالهم عن حد التخمين) .

وقد باد اكثرها لان حضارة الاقوام والقبائل التي كانت تتكلم بها زالت ، ولم يبق منها الا اللغة العربية ، واللغة العبرانية ، واللغة السريانية ، واللغة الحبشية.

اللغة العربية والاقوام التي تتكلم بها :

أما اللغة العربية ففي الوقت الحاضر يتكلم بها ثمانون مليونا من النفوس يقطنون البلاد العربية : (مصر واليمن ، والجزيرة العربية السعودية ، والكويت ، وسورية ، ولبنان ، والعراق، وبلاد الاردن، وفلسطين، وبلاد المغرب ، والجزائر ، وتونس ، وليبيا ، والسودان، وحضرموت ، وعدن ، والبحرين) . وكان يشيع استعمالها والتكلم بها كلغة دين ، وادب ، وعلم ، وفن ، وطب ، وفلسفة ، وتشريع ، وتجارة ، وسياسة ، بين الامم الاسلامية التي دانت للعرب ودخل الاسلام الى قلوبهم وديارهم وانتشرت حضارته بينهم ، وبقوا تحت حكم خلفائهم وملوكهم وامرائهم اكثر من تسعة قرون، من عصر صاحب الرسالة المحمدية وخلفائه الراشدين وزمن دولة الامويين والعباسيين ودولة الفاطميين والايوبيين في مصر وسورية ، والعراق ، وشمالي افريقيا ، ودولة الامويين في الاندلس ومن حكمها ، وحكم شمالي افريقيا من دولة الموحدين والمرابطين وملوك بني حفص وغيرها ، ودولة الحمدانيين وبني مرداس والمماليك السلجوقيين ، والجراكسة في بلاد الشام ومصر ، ودولة آل بويه في العراق ، ودولة خوارزمشاه ، والاتابكية ، وبني آرتق ، ثم دولة ملوك سامان فيما وراء النهر وخراسان ، ودولة ملوك آل سبكتكين ، ودولة بني طولون ، ودولة الاخشيدية في مصر ، وملوك كرمان وغزنه ، الى ان انتهت الخلافة العربية وقام بالفتوحات دولة بني عثمان ، ودولة هلاكو والتتار، وملوك فارس، وحلت لغات هذه الدول التركية والتتارية والفارسية والاوردية في بلادهم محل اللغة العربية . واخذ كل من هذه الدول ينشر لغته في بلادها وارجائها، ولكن بالرغم مما اصاب الامبراطورية العربية، والبلاد الاسلامية من كوارث ومحن وانحلال فقد بقيت اللغة العربية في هذه البلاد لغة الدين والشرع والعبادات ، والتعليم ، تقوى وتضعف حسب تطور كل دولة وكل مملكة ، وبمقدار تمسك اقوامها بالدين الاسلامي ، وتعاليمه ، وبمقدار انتشار العلم وزوال الامية من بين افرادهم ، وبمقدار وجود المدارس الدينية ، والمؤسسات الروحية ، والجامعات العلمية ، ووجود المكاتب العامة ، والخاصة ، والمطابع ومطبوعاتها في البلاد الاسلامية و في البلاد التي توجد فيها اقوام اسلامية كالهند ، والصين ، وبلاد غربي آسيا وبلاد السوفيات ، وتركيا ، ودول افريقيا المسلمة ، واندونيسيا ، وافغانستان ، وباكستان .

اللغة العبرية ، واللغة الحبشية ، واللغة السريانية ، وما آلت اليه كل منها :

واما العبرية فقد انحصرت في بقايا بني اسرائيل بحسب العوامل الزمنية والسياسية ، والثقافية . وانحصرت السريانية في بعض القرى والاماكن التي يقطنها بقايا الآشوريين في العراق، وبعض قرى لبنان، وسورية ، وايران .

وانحصرت الحبشية (الامهرية ، والصومالية والحميرية) بسكان اثيوبيا والصومال .

وتختلف اللغات الانسانية في مبلغ انتشارها كما ذكر الدكتور علي عبد الاحد الواني في كتابه (علم اللغة) اختلافا كبيرا ، فمنها ما يتاح له فرص مواتية فينتشر في مناطق واسعة من الارض ويتكلم به عدد كبير من الامم ، كما للاتينية والبورتغالية والافرنسية والالمانية في العصور الحديثة .

(ومنها ما تسد امامه المسالك فيقضي عليه ان يظل في منطقة ضيقة من الارض وفئة قليلة من الناس).

اسباب انتشار اللغة العربية :

اما انتشار اللغة العربية فيعود الى عدة عوامل :

اولا — ان اللغة المذكورة عاشت في صراع مع لغة اخرى او لغات اخرى . وتقضي نواميس التنازع اللغوي ان يكتب لها النصر فتحتل مناطق اللغة او اللغات المقهورة فيتسع بذلك انتشارها . وتدخل امم جديدة في عداد الناطقين بها ، كما حدث للغة اللاتينية في العصور القديمة وكما حدث للغة العربية في العصور الاسلامية اذ تغلبت على كثير من اللغات السامية الاخرى وعلى اللغات القبطية والبربرية حتى بلغ عدد الناطقين بها (80) مليونا من النفوس ينتمون الى خمس عشرة دولة بعد ان كانوا لا يتجاوزون العشرة الاف يقطنون منطقة في الجنوب الغربي والشمالي من جزيرة العرب .

ثانيا ـ ومن دواعي انتشار اللغة ، ان ينتشر افراد شعب ما على اثر هجرة ، او فتح او استعمار يتم في مناطق جديدة بعيدة عن اوطانهم الاولى وتتكون من سلالاتهم بهذه المنطقة امة ، او امم متميزة كثيرة السكان ، والامثلة على ذلك كثيرة في العصور القديمة والعصور الحديثة .

ففي العصور العربية القديمة هاجرت قبائل عديدة من العرب يمنيون وعدنانيون كما جاء في تاريخ خطط الشام وتاريخ العرب قبل الاسلام ، فقد هاجرت (سليخ وعنان ، والضجاعم الى الشمال من بلاد الشمال، وهاجر التنوخيون الى الجنوب وسليم، وقضاعة ، وعاملة الى فلسطين ، ثم لخم ، وجزم ، وذبيان وكلب الى الرملة والجولان ومصر . ثم جهينة والقينة وبهراء ، وتنوخ الى حوران وجبال الشراة ومدائن صالح ، ثم اياد وطي وكندا ، وزبير وهمدان وبحصب ، وقيس ، وهم من عرب اليمن فنزلوا حمص وحماه وسلميه، وتدمر، وحلب وكانت دمشق منازل ملوك غسان ، واهلوها وما جاورها من قبائل وقرى من بطون قيس ، وبها جماعة من قريش .

وسكن بنو تنوخ بقاع حلب، ومنبج، والموصل. وسكن بنو بكر بن وائل ديار بكر واورفه . ولم تقتصر الهجرات العربية الى سوريا وفلسطين ولبنان ، بل امتدت الى العراق ايام المناذرة ، وزادت اكثر فاكثر ايام الفتح الاسلامي عندما قاد الجيوش العربية سعد ابن وقاص، وخالد بن الوليد، وابو عبيدة بن الجراح، ثم تتابعت ايام الامويين وايام العباسيين فامتدت الى بلاد واسط والكوفه والبصرة ، وبغداد ، والموصل ، والرقه ثم الى بلاد فارس وما وراء النهرين وبلاد افغانستان والسند والهند والصين ثم الى قافقاسيا حتى باب الابواب وكذلك تدفقت هجرة القبائل العربية ايام عمرو بن العاص وعقبة بن نافع وموسى ابن نصير وغيرهم من قواد العرب والفاتحين الى شمالي افريقيا والسودان ثم الى بلاد الاندلس حتى جنوبي فرنسا وجنوبي ايطاليا ، ثم الى صقلية . فاستوطنوا وتزاوجوا واختلطوا مع البربر وانشاوا المدن ، والقرى والثغور ، والعواصم ، واقاموا المنشئات واسسوا الحضارة ، وعملوا على نشر الاسلام والعلم ، واللغة العربية ، وكانوا في حكمهم عادلين وفي فتوحاتهم بانين ، وفي حضارتهم عاملين لخير الدنيا والدين فلم تقو عوادي الزمن وعواصف الايام على ازالة آثارها الخالدة وما لها من فضل على الاجيال الآتية .

ـ كيف انتشر الدين الاسلامي وانتشرت معه اللغة العربية :

وكان من تاثير تلك الفتوحات والهجرات المتواليات ، وتلك الحضارة الشاملة انتشار اللغة العربية وازدهار فنونها ، وعلومها ، وآدابها ، لان الذين هاجروا الى تلك البلاد حملوا معهم حضارة الشرق الاسلامي ، وتعاطوا التجارة ، والزراعة ، والصناعة ، واختلطوا بالسكان فاحكموا الاندماج ، والترابط ، والامتزاج ، ونشروا الدين وعمموا العلم ثم تعاونوا على تاسيس الملك وادارته وبناء المدارس ، والجوامع ، والمعاهد، واسسوا المكاتب ، واكثروا من التاليف والنشر . وكانوا في اخلاقهم ودينهم ، وآدابهم ، ودفاعهم عن الحق وحرية الفكر ، والعمل ، وفي تنفيذهم لاحكام الشريعة في قضائهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم وفي دفاعهم عن كرامة الدين والوطن من اعدل الحاكمين كما شهد بذلك « غوستاف لوبون » العالم الاجتماعي النفساني .

وكانت عهودهم ارقى العهود اجتماعيا ، وحضاريا ، واقتصاديا ، وثقافيا يبرهن عليها ما الف في ايامهم من ملايين الكتب ليس في بلاد الاندلس ومصر والعراق والقيروان فحسب بل في سائر البلاد الاسلامية وكلها باللغة العربية حاوية انواع العلوم والفنون والآداب وبالخاصة ما الف ونشر في بلاد فارس ، والهند ، وبخارى ، وطاشقند ، وحيدر آباد ، ودلهي ، ثم ما ظهر في جميع البلاد الاسلامية من علماء وفلاسفة ، واطباء ، وادباء ، وشعراء ، وفلكيين ، ورياضيين ، وكيميائيين ، وبنائين ، ورجال صناعة ، وتجارة ، وفن ، ورجال حرب ، وهندسة ، وزراعة وعمران في عصور عبد الملك ، وابنه الوليد ، وابنه هشام ، وكذا في ايام جعفر المنصور، وهارون الرشيد ، والمامون ، والمعتصم ، وفي ايام الفاطميين ، والحمدانيين والامويين في الاندلس ومن اتى بعدهم من الموحدين والمرابطين ، كل هذا وسواه ليدل الباحث على ما وصل اليه العالم العربي الاسلامي من الرقي وما كان من انتشار الدين الحنيف من تاثير على انتشار اللغة العربية ونهضتها وما كان لحضارتهم من تقدم وعز ومنعة ، وسمو وحرية ساعد على رقي المدينة الاسلامية والتقدم البشري مع التقدم في الآداب ، والدين ، والاخلاق الذي ضمن رفاهية الشعب ، وقيام المشافي والبيمارستانات والخانقاهات والسبل ، والمبرات

والملاجيء والمعاهد ، والمكاتب ، ودور الايتام بسرعة حيرت المؤرخين والباحثين .

وفى ذلك يقول الفيلسوف اوزفالد شبنغلر الالماني فى كتابه عن سقوط الحضارة الغربية :

« ان الحضارة العربية كانت تؤمن بثلاثة ابعاد (الطول والعرض والعمق) لكن الفرق بين العمق الفادستي) الفادستية مذهب منسوب الى فادست الالماني الطبيب العالم الاسطوري الذي باع روحه للشيطان وعليها بنى « غوته » روايته فادست ، والعمق الغربي ان الاول يتسامى ليحلق فى الفراغ بينما العمق العربي ينحدر ليغوص فى الاعماق لباطن الارض ، وهذا وحده كاف ليفسر لنا سر الحميا الجبارة التى دفعت بالحضارة العربية عندما انطلقت اخيرا من قيودها وافلالها لتلقي بظلالها على جميع البلدان التى تنتمي اليها باطنيا منذ قرون وقرون وقرون سبقت انطلاقتها الاولى .

ان هذه الحميا لدلالة على ان النفس العربية هي فى عجلة دائمة من امرها . فهي تلاحظ اعراض شيخوختها حتى بلوغ شبابها . وانه والحق يقال لا مثيل هنالك فى التاريخ لتحرر الجنس الوثني وانطلاقه كما حدث للجنس العربي بتحرره السريع ، وانطلاقه المعجز ، فلقد فتحت سوريا لا بل حررت عام 634 م . وسقطت دمشق عام 637 م واستعيدت مصر عام 645 م . وبلغ العرب الهند فى ذات التاريخ . وفى عام 647 م عادت قرطاجنة . وفى عام 676 م استعيدت سمرقند . وفى عام 710 م سقطت اسبانيا . وفى عام 734 م اخذ العرب يقرعون ابواب باريس .

لقد ضغطت فى هذه السنوات القلائل جميع العواطف العربية المدخرة ، والآمال المؤجلة ، والاعمال المحفوظة ، هذه التى يكفي لتملأ قرونا وقرونا من التاريخ) .

ثم يقول الفيلسوف المنصف (فالصليبيون امام القدس، وسلالة هوهنشتاوفن فى صقلية، والهانسا فى البلطيق ، والفرسان التيوتينيون فى الشرق السلافى والاسبان فى امريكا ، والبرتغاليون فى الهند الشرقية، وامبراطورية شارل الخامس التى لم تغرب الشمس عنها ، وبداية العصر الاستعماري الانكليزي تحت رعاية كرومويل هذه الانطلاقات كلها تعادل فى زخمها انطلاقة واحدة حملت العرب الى اسبانيا وفرنسا وجنوبي ايطاليا والى الهند وباكستان) .

ـ الاسباب الاخرى لانتشار اللغة العربية :

ومن الاسباب الفعالة التى ساعدت على انتشار اللغة العربية خارج البلاد العربية يرجع ولا شك الى الاسلام ذاته ، فى عدالته وصدق معاملاته ، وقضائه ، مما جلب قلوب الرعايا وحبب الى النفوس تعلمها ، والايمان بشريعتها ، والطاعة لقرءانها .

ثم لاطلاق الاسلام الحرية فى العقيدة ، والفكر والعمل وفقا للقاعدة الاساسية الاسلامية التى اعلنها (الخليفة الثاني عمر) عندما سأل عامله (متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم امهاتهم احرارا ؟) .

ثم للمساواة التى شرعها الاسلام بين افراد الناس على اختلاف طبقاتهم ، ومللهم والوانهم ، ونحلهم ، اذ جعل الجميع يتساوون امام الحق والمسؤولية والشريعة ، اذ تقول الآية الكريمة (ان اكرمكم عند الله اتقاكم) وينص الحديث الشريف قائلا (ليس لعربي على اعجمي من فضل الا بالتقوى). ثم يقول الرسول الاعظم (الخلق كلهم عيال الله واقربهم اليه انفعهم لعياله) ، وفوق كل ذلك امر الاسلام بالعدل بين جميع الناس فقال عز من قائل (ان الله يامركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل) فبهذه المباديء التى قام عليها الاسلام وغيرها انفتحت القلوب المغلقة، واسهم الناس ، واطاعت الشعوب ، وتعلمت افرادها اللغة العربية لغة القرآن والحديث .

فالشعوب والامم مهما تكن اجناسها ، ونحلها ، والوانها ، وانواعها ، لا تقبل على طاعة الحاكمين ؛ وتتعلم لغتهم عن رغبة وطواعية ، وتخضع لاحكامهم بقبول ورضى ولا تعيش فى ظلهم بناءة ، عاملة ، ومنتجة ، وهادئة ، الا بفعل العدل ، والمساواة والرعاية ، والحرية والشعور بالحماية والتعاون ، حسب منطوق الحديث الشريف (كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته) اضف الى هذه الفضائل والمباديء السامية ، روح النفس العربية فى الامة ذات القومية المتفتحة ، غير المتعصبة ، ولا المحتكرة ، قومية تنظمها الاخلاق ، الاخلاق الحميدة ، والحميدة تقط على وجه التخصيص ، الاخلاق التى تغلب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، والوجدان على العقل، والعدل على الظلم ، والروية على الاندفاع ، والعفو على السفك ، اخلاق تؤمن بان الغاية الشريفة لا يجوز ان يسلك اليها بوسائل غير شريفة ، وهذا ما عجل بانتشار الاسلام ولغته وساعد على تعرب الاقوام ،

اضف اليه اهتمام الراعي برعيته ومسؤوليته تجاهها، وصلاح اللغة العربية للنمو والتوسع والتطور . واخيرا تشجيع ذوي الامر من ملوك وخلفاء وامراء ووزراء لرجال العلم والعلماء والتعليم واغداق الاموال الوفيرة والمكافاة السخية لخدمتهم العلم ونشره والتاليف في مختلف انواعه ولمن درس وخدم اللغة والشريعة والادب والفن .

ـ العوامل الاخرى التي ساعدت على انتشار اللغة العربية :

ومن الاسباب التي ساعدت على انتشار اللغة العربية ، مقوماتها الطبيعية في الاوطان الاصليةنفسها، فياخذ افرادها ، وطوائفها في الزيادة المطردة ، وتنشط حركة الاقتصاد والعمران في بلادها ، فتكثر فيها المدن والقرى ، والدساكر ، والعواصم ، وتتعدد المناطق ، والاقاليم ، فيتسع لذلك نطاق انتشارها ، ومدى ارتقائها ، كما حدث لكثير من الدول كالانكليز، والافرنسيين ، واليابان ، والاسبان ، والبرتغال في بلادهم والبلاد التي احتلوها ، واستعمروها والتي هاجروا اليها .

ثم شغف العرب وظماوهم للحصول على المعرفة والعلم اينما كان ومن حيث كان والاخذ بهما من مواردهما، والعمل على نشرهما، وقد سار الاقدمون من العرب وتبعهم المتاخرون على هذه السنة ، وشاركهم في ذلك اهالي البلاد التي دانت لهم فكثر من بينهم حملة العلم ، والنبغاء ، وارباب التبحر والاختصاص ، وظهر فيهم اهل المواهب والذكاء فترجموا كتب الاقدمين من هنود وعجم وسريان ويونان الى لغتهم العربية واستقدموا منهم الفلاسفة والاطباء والعلماء الى بلادهم للاستفادة منهم وللترجمة والتدريس . ونقلوا من البلاد البعيدة ذات الحضارة الكتب العلمية وانشاوا دورا للنقل والترجمة والمكاتب للدروس والمطالعة ، وبنوا المدارس والمعاهد العلمية للتعليم والتدريس ، واسسوا الجامعات في عواصم بلادهم . وبذلوا المال بسخاء لم يعرف له نظير . وتبادلوا مع الشعوب ما رزقهم الله به من علم ولغة وادب وفن وتجربة .

وبهذا الشغف والظما ، والتشجيع والسخاء والكرم ـ الدافع القوي ـ والخصلة السامية ازدهرت الحضارة العربية ، وعم الاسلام ، وانتشرت اللغة العربية ، ونبغ العلماء ، والشعراء ، ورجال اللغة والادب ، والقراء ، والفقهاء ، ورجال الحديث وائمة المذاهب ، والمؤرخون ، واصحاب التفاسير ، والاطباء ، والفلاسفة ، والقضاة ، والمهندسون ، والرياضيون ، والفلكيون ، وسواهم من صنوف العلماء والادباء والمتخصصون وكلهم تثقف بالثقافة العربية وباللغة العربية ، لغة الدين والحكم والتاليف ولغة الدولة ، ولغة العلم والفن والادب ، والغناء والموسيقى ، تجمعهم لغة القرءان والحديث واللغة الفصحى وان كانوا من اقوام مختلفة وطبقات متباينة واقاليم قريبة او نائية ، وان كانوا في لهجاتهم متفرقين ، فللعراقي لهجته وللشامي لهجته وللمصري لهجته وللمغربي لهجته وللخراساني لهجته ، عدا لهجات العواصم والمدن ، والارياف ، ولهجات اهل المهن والحرف ، ولكن الخمسمائة مليون من العالم الاسلامي لم تخرج لهجتهم عن اللغة الفصحى التي حفظها القرآن والحديث فيما يؤلفون وينشرون ويتعلمون ويدرسون ويتراسلون .

وقد ساعد على انتشار اللغة فيما عدا ذلك في القرون التي تلت ظهور الاسلام وفي عصرنا الحديث ازدهار حركة التاليف والنشر فقد ملئت الدنيا بالمؤلفات المخطوطة في كل علم وفن وادب .

وكان من المحزن، والمؤسف، ومن الخسارة التي لم تعوض ، ان اصيب العالم الاسلامي في الشرق والغرب بغزوات المغول ووحشيتهم وبغزوات التتار ومظالمهم والصليبيين وحروبهم ، والاسبان وبربريتهم ومحاكمهم في بغداد ودمشق والقاهرة والاندلس ، فارتكب الجميع قتل المغلوبين ، ونهب اموالهم وتصورهم وتهجيرهم بعدما خربوا القلاع ، والمساجد ، واتلفوا معظم المكاتب وما فيها من مخطوطات ، ونفائس واضاعوا على العالم ثروة لا مثيل لها من العلم ، والحضارة . وقد شاءت الاقدار ان يكون نصيب بغداد من الضياع فوق ما يتصور فقد بقي ماء دجلة عشرة ايام اسود من كثرة ما القي في جوفه من المخطوطات لتمر من فوقها الجنود .

ـ اثر القرءان والحديث والاسلام في انتشار اللغة العربية ونموها ، وتطورها ، وارتقائها :

وفي هذا الموضوع يقول صاحب كتاب فقه اللغة الاستاذ الجليل الدكتور علي عبد الواحد، ما يلي: (ان القرءان العظيم مفخرة العرب في لغتهم اذ لم يتح لامة من الامم كتاب مثله (لا ديني ولا دنيوي) من حيث

البلاغة والتاثير فى النفوس والقلوب سواء حين يتحدث عن الله الواحد الاحد، وعن عبادته، وعظمته، وجلاله، او عن خلقه للسماوات ، والارض ، وما بينهما، او عن البعث والنشور، او حين يشرع للناس مناهج حياتهم ، ويقيمها على اسس قويمة ومبادىء سامية تحقق لهم السعادة فى الدارين الاولى والآخرة)، وحين يقول الله فى كتابه مخاطبا الانسان « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، واحسن كما احسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الارض ، ان الله لا يحب المفسدين » .

وبعد هذا يمكن تلخيص العوامل التى اثرت تعاليم الاسلام وكتابه المنزل على رقي اللغة العربية وانتشارها وتهذيبها وتوحيدها بما يلي :

أ ـ تقوية سلطان اللغة القرشية . فقد كان لمجيء القرءان والحديث بلغة قريش وهما دعامة الشرع الاسلامي الذى اعتنقته قبائل العرب اعظم تاثير فى توطيد هذه اللغة وتثبيت اركانها وقواعدها وتقوية سلطانها على الالسنة واللهجات

ب ـ تهذيب اللغة العربية وتنقيحها والنهوض بها الى ارقى مستويات اللغات والآداب .

ويبدو اثر ذلك فى مختلف النواحي اللغوية (فى الاغراض ، والمعاني والاخيلة ، والاساليب) .

اما الاغراض : فقد اتسعت ابما اتساع بفضل

القرءان ، والحديث ، وبانتشار الاسلام وتعاليمه فى امم ذات ثقافات عريقة ، وبما افاده العرب ولغتهم من الاحتكاك بهذه الثقافات وقد فتح القرءان والحديث للغة العرب ابوابا كثيرة من فنون القول ولجت فيها امور لم تكن العربية عالجتها من قبل، وذلك كمسائل القوانين والتشريع والقصص ، والتاريخ ، والعقائد الدينية ، والجدل فيما وراء الطبيعة ، والاصلاح الاجتماعي ، والنظم السياسية، وشؤون الاسرة ، واصول القضاء ، ودراسة مظاهر الكون والحياة ، والفلك ، والطبيعة والنبات والحيوان وهلم جرا .

ثم يقول الاستاذ علي عبد الواحد (وقد اضيفت الى هذه الاغراض فيما بعد اغراض كثيرة يرجع فيها الفضل الى الاسلام وانتشاره ، واتساع رقعة المملكة العربية وارتقاء مظاهر المدنية فيها . والى ما ورثه العرب عن الامم التى دانت لهم ولحضارتهم ، من علوم ، وفنون ، وصناعات ، وثقافة ، وعمران . وما اقتبسوه من لغاتهم وفنونهم ، وما ترجموه من مؤلفاتهم فى مختلف الشؤون ، واوجه الحياة . فتناولت العربية بجانب ما تناولته من قبل ، شؤون التاليف فى الرياضيات والفلك والطب والطبيعة والمنطق والكيمياء والفلسفة ، والفقه ، وفنون اللغة، والنقد الادبي ، وتاريخ الادب والرسائل السياسية ، وضبط امور الدولة وتنظيم شؤون الدواوين ، والرد على المذاهب الزائفة ، ومقاومة الكفر والزندقة والالحاد ، وصنع القصة والرواية ، والمقامات وهلم جرا .

وقد نجم عن اتساع اللغة العربية وارتقائها فى ناحية الاغراض اتساع وارتقاء فى **ناحية الاخيلة والاساليب .**

ثم قويت على تجلية المعاني الدقيقة التى جلبتها

العلوم السابق ذكرها واستخدمت فيها الحجج العقلية والبراهين المنطقية ، والادلة الفلسفية وادخلت فيها عناصر جديدة للخيال والتشبيه ، وتهذبت اساليبها ، وتشكلت فى صور الاساليب العلمية) .

ثم يقول (واما المفردات ودلالتها ، فكان الاثر

فيها واضحا كل الوضوح ، فقد تجرد كثير من معانيها القديمة ، واصبحت تدل على معاني خاصة تتصل بالعبادات والشعائر ، وشؤون السياسة ، والادارة والحرب ، ومصطلحات العلوم والفنون ، ومن ذلك الفاظ الصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج ، والخليفة ، والامام وامير المؤمنين ، والقاضي ، والوالي ، والعامل ، والكاتب ، والوزير ، والشرطة، والدرك ، والوظيفة ، والقطائع ، والجريدة ، والصائفة (التى تذهب ايام الصيف) ، والشاتية (الكتيبة التى تذهب ايام الشتاء) والمرتزقة، والمتطوعة ، والشحنة، والثغور ، والعمارة ، ودار الصناعة ، وديوان الجند، وديوان الرسائل ، وديوان الخاتم ، والسرير ، والسكة والطراز ، والمقصورة ، والتعجب ، والنعت ، والتوكيد ، والتجويد ، والحد ، والتعزير ، والتكدير، والشبهة ، والقياس ، والتعريف ، والتصريف ، والقضية ، والسالبة ، والموجبة ، والمقدمة ، والنتيجة ، والصرع ، والاستسقاء ، والذبحة ،

والربو ، والوافدة ، والامزجة ، والشلل ، والمثلث ، والمربع ، والدائرة ، والكون ، والحوادث ، والوجود ، والعرض ، والازل ، والابد ، والبداية ، والنهاية ، والمطلق ، وما الى ذلك من آلاف وآلاف المفردات التي تستخدم في مختلف العلوم والفنون . وبجانب هذه الالفاظ العربية الاصل ، اقتبس العرب لنفس الاغراض الفاظا اعجمية من لغات كثيرة وخاصة من الفارسية ، واليونانية ، والسريانية بعد ان عربوها وصقلوها بمناهج اللسان العربي. ومن ذلك الفاظ البند ، والديوان ، والعسكر ، والصهريج ، والقيروان (اي القافلة) والطنبور ، والبابونج ، والزرنيخ ، والمالخوليا ، والاصطرلابه ، والطلسم ، والمغنطيس ، والقانون ، والاسطول ، والبارجة ، والفلسفة ، والهيولى وعلم جرا .

وقد جرت عادتهم في الغالب ان يبحثوا للمعنى الجديد عن لفظ عربي عن طريق الاشتقاق ـ الذي هو من اهم خصائص اللغة العربية ـ او عن طريق المجاز ، واذا اعيتهم الحيلة عمدوا الى تعريب اسمه الاجنبي. وكثيرا ما يلجاون الى هذه الوسيلة الاخيرة من باديء الامر ، اذا كان اللفظ يدل على معنى اصطلاحي دقيق يخشون ضياعه في ثنايا اللفظ العربي .

ـ ما كان من ءاثار القرءان في الادب العربي :

واول ءاثار القرءان الكريم انه جمع العرب على لغة قريش ولهجتها الفصحى . وحقا كانت هذه اللهجة تسود القبائل في الشمال زمن الجاهلية . غير ان هذه السيادة لم تكن تامة فقد كان الشعراء هم الذين يستخدمونها غالبا .

اما قبائلهم فكانت تلوك لهجات تختلف عن اللهجة القرشية قليلا ، وكثيرا ، حسب قربها من مكة او بعدها ، فعمل القرءان على تقريب ما بين هذه اللهجات من فروق واستكمال السيادة للهجة القرشية ، اذ كان العرب يتلون آياته وسوره آناء الليل واطراف النهار ثم اخذت هذه اللهجة تعم بين القبائل البدوية متغلغلة في الانحاء الداخلية التي كانت لا تزال تتكلم الحميرية ولما فتحت الفتوح ، ومصرت الامصار ، اخذت لهجته تسود في مشارق الارض الاسلامية ومغاربها ، اذ كانت تلاوته فرضا مكتوبا على كل مسلم ومسلمة . وحث الاسلام على حفظه وتلاوته .

ثم يقول الاستاذ (ولا شك ان هذا الحفظ اتاح للهجة قريش ان لاتنتشر في العالم الاسلامي فحسب، بل تحفظ ايضا ، وتظل على مر العصور جديدة غضة لا تبلى مع الزمن ثم انها اكتسحت ما لقيت من لغات، اذ اتخذتها شعوب لاعداد لها لسانها ، فاصبح هو اللسان الادبي واللسان العلمي من اواسط آسيا الى المحيط الاطلسي . فكل من عاشوا في هذا الاتحاد تكلموا العربية القرشية اذ حلت محل لغتهم الاولى واصبحوا عربا يعبرون بالعربية الفصحى عن مشاعرهم وعقولهم ، وعواطفهم ، ومعارفهم بفضل القرآن. فهو الذي حفظ العربية من الضياع ونشرها في الارض وجعلها لغة حية خالدة .

وثاني آثاره انه حول العربية الى لغة ذات دين سماوي وبذلك اصل فيها معاني لم تكن تعرفها من قبله ولا كانت تعرف العبارة عنها .

ويقف عادة مؤرخو الادب عند الفاظ ابتداء مثل الفرقان ، والكفر ، والايمان ، والاشراك ، والاسلام ، والنفاق ، والصوم ، والزكاة ، والتيمم ، والركوع ، والسجود ، والتشهد ، والتسليم ، والتكبير ، والاذان ، والقنوت ، والتهجد ، والطلاق، والفاتحة وغير ذلك من كلمات الدين الاسلامي. ولكن من الحق ان المسالة لم تكن مسالة الفاظ انما كانت مسالة دين جديد له مضمونه الذي لم يكن العرب يعرفونه .

وبمر الزمان تكونت حوله علوم، ولا مبالغة اذا قيل ان كل ما كسبه العرب من علوم ومعارف ، انما كان بفضل ما غرس فيهم القرآن من حب للعلم كما تقدم ، ومن هذه العلوم المختلفة علم التفسير ، وعلم اسباب النزول ، وعلم اعجاز القرآن وعلم نحوه واعرابه وعلم خاصه وعامه ، مما هيأ علوم البلاغة .

ومن العلوم المهمة المتفرعة عنه علم الفقه واصوله . ولا نبالغ اذا قلنا ان العلوم الاسلامية كلها قامت لخدمة القرآن وتعاليمه فهو الذي هيأ بقوة لنهضة العرب والاسلام العلمية .

وثالث آثاره كما ذكر العلامة الدكتور شوقي ضيف في تاريخه عن الادب العربي (ان القرآن هذب اللغة العربية من الحوشي ، ومن اللفظ الغريب . فاقامها بهذا الاسلوب البالغ الروعة الذي ليس له سابقة ، ولا لاحقة في العربية ، هو الذي اقام عمود الادب العربي منذ ظهوره فعلى هديه اخذ الكتاب

والخطباء والشعراء يصوغون آثارهم الادبية . مهتدين بديباجته الكريمة وحسن مخارج الحروف فيه ، ودقة الكلمات في مواضعها من العبارات بحيث تحيط بمعناها ، وحيث تجلى عن مغزاها مع الرصانة، والجزالة ، والحلاوة .

وكان العرب ولا يزالون يتحفظون . فهو معجمهم اللغوي والادبي الذي ساروا على هداه مهما اختلفت اقطارهم او تباعدت امصارهم، واعصارهم.

ويأتي الحديث الشريف بعد ذلك من حيث التأثير على نشر اللغة العربية وتهذيبها ، لانه فصل اركان أصول الدين ، واحكامه التي اتت مجملة دون تفصيل . وهو عماد السنة ، والرسول اوتي جوامع الكلم ، ولم يتكلم بكلام كما يقول الجاحظ « الا وقد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق . » وكان له الاثر البالغ في توسيع المادة اللغوية ، بما اشاع من الفاظ دينية وفقهية . واحاديث الرسول المسندة ذات الفاظ عربية سليمة ، وكنز ثمين لها . وقد استمد المتادبون من هذا الكنز في رسائلهم واشعارهم ما اضاف اليها على مر العصور رونقا وحلاوة .

ـ خصائص اللغة العربية ومميزاتها التي ساعدت على نموها ، ونمو العلم ، والادب :

تمتاز اللغة العربية عن سائر اخواتها اللغات السامية ، وعن سائر لغات البشر بوفرة كلماتها حتى قال السيوطي في « المزهر » ان المستعمل والمهجور منها يبلغ عدده (12.313.780) والزبيدي يقول في « تاج العروس » ان الصحيح يبلغ (6.620.000) والمعتل يبلغ (6.000) كلمة وذكر ايضا ان كتابه حوى (120.000) كلمة .

وعدا عن وفرة المفردات فانها ذات اطراد في القياس في ابنيتها ، وعن هذا وعن تنوع اساليبها ، وعذوبة منطقها، ووضوح مخارجها، ووجود الاشتقاق في كلماتها يقول الاستاذ الفاضل محمد عطية الابراشي في كتابه الآداب السامية . وقد صانت هذه الخصائص اللغة العربية زمن جاهليتها قرونا سحيقة ، وهي في جزيرة العرب ودفعت تقدمها في النظرية التي نشأت عليها آمنة شر الامتزاج بالفاتحين، او لهجة المغيرين حتى ظن كثير من العلماء انها وليدة المواضعة واصطلاح متعمد من حكماء اهلها لانها لغة فطرية وفطرية تدريجية ، من اقدم اللغات السامية ، وهي اصلها على راي كثير من علماء عصرنا الشرقيين ، والغربيين . ثم يقول هذا ولا يمكننا ان ننسى ان الاعراب والايجاز ، والسجع ، وكثرة المترادفات ، ودقة التعبير ، تضاف الى خصائص هذه اللغة التي هي من اقدم اللغات الحية. فليس في العالم اليوم لغة محكية اقدم منها . ولا تزال تحتفظ بالاعراب تاما كاملا شان جميع اللغات القديمة .

اما اللغات المذكورة فعلى راي الاستاذ الجليل عمر فروخ فقد فقدت الاعراب في اللغة الدانماركية، واللغة الروسية ، وهناك للاعراب في اللغات الباقية.

ويبدو أن اللغة العربية ، انفصلت عن اخواتها الشمالية من اللغة السامية الام منذ زمن بعيد جدا ، ثم عادت فانفصلت من المجموعة الشمالية ايضا منذ زمن بعيد .

ونحن اذا دققنا في اللغات السامية وجدنا اللغة العربية اتمها صيغا واكملها صرفا ونحوا ، وارقاها بيانا وبلاغة ، واحسنها اسلوبا ، فمن اجل ذلك لا يستبعد ان تكون هذه هي اللغة السامية الام والفصحى ، وان البابلية ، والكنعانية ، والآرامية والحبشية لهجات لها ، ومع كثرة الصلات التي كانت بين عرب الشمال والجنوب منذ اقدم الازمنة فان لغة حمير ابتعدت كثيرا عن اللغة المضرية (العربية الشمالية التي نزل بها القرآن حتى قال ابو عمر ابن العلا منذ صدر الدولة العباسية (ما لسان حمير واقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا) .

وكان جميع العرب الذين يسكنون النصف الشمالي من الجزيرة في البحرين واليمامة ونجد والحجاز سواء أكانوا ينتسبون الى مضر او اليمن ،، يتكلمون لغة واحدة ، وينظمون اشعارهم منها .

ولقد رأينا شعراء الجاهلية من اي المواطنين كانوا ينظمون قصائدهم بلغة واحدة في كل شيء ، ثم يحملون تلك القصائد لينشدوها في اسواق العرب اوفي جميع البلاد العربية في العراق والشام ، وحتى في اليمن نفسها مما يدل على ان لغة مضر كانت في الجاهلية اللغة العامة للعرب .

وبالرغم عن هذا لم يمنع ان يكون للعرب لهجات محلية مأثورة في قبيلة او قبيلة . على أن معنى اللهجة هنا ، انما هو استعمال الفاظ مختلفة

للمعنى الواحد في بعض الاحيان ، والمجيء بصيغ متباينة لتلك الالفاظ احيانا . اما التركيب ، واما النحو والمنطق اللغوي ، فكانت كلها واحدة .

ويقول الاستاذ علي عبد الواحد الوافي (ومن اهم خصائص اللغة العربية عاملان لم يتوافرا لغيرها من اللغات السامية . احدهما انها نشأت في اقدم مواطن الساميين. وثانيهما ان الموقع الجغرافي لهذا الوطن قد ساعد على بقائها حينا من الدهر متمتعة باستقلالها وعزلتها .

وكان من اثر هذين العاملين ان احتفظت باكبر قدر ممكن من مقومات اللسان السامي الاول ، وبقي فيها من تراث هذا اللسان ما تجردت منه اخواتها السامية فتميزت عنها بخواص كثيرة منها ومن اهمها الامور الآتية :

ا ـ انها اكثر اخواتها احتفاظا بالاصوات السامية ، فقد اشتملت على جميع الاصوات التي لاخواتها ، وزادت عليها باصوات كثيرة لا وجود لها في واحدة منها وهي (التاء ، الذال ، الظاء ، العين، الصاد) .

ب ـ انها اوسع اخواتها ثروة في اصول الكلمات والمفردات فهي تشتمل على الاصول التي تشتمل عليها اخواتها السامية ، ومعظمها ، وتزيد عليها باصول احتفظت بها من اللسان السامي الاول . ولا يوجد لها نظير في اية اخت من اخواتها هذا الى انه قد تجمع فيها من المفردات في مختلف انواع الكلمة اسمها وفعلها وحرفها ما لم يجتمع مثله للغة سامية .

ج ـ وتمتاز اللغة العربية عن غيرها بأن الاصل الواحد يتوارد عليه مئات من المعاني بدون ان يقتضي ذلك اكثر من تغييرات في حركات اصواته الاصلية نفسها مع زيادة بعض اصوات عليها ، او بدون زيادة، وان كان ذلك يجري وفق قواعد مضبوطة دقيقة نادرة الشذوذ مثلا (علم ، علمنا ، اعلم ، يعلم ، تعلم ، اعلم ، اعلمي ، علم ، نعلم ، تعلم ، تعالم ، علم ، يعلم ، علم ، علامة ، علم ، علوم ، اعلام ، علامات ، عليم ، علامة ، علماء ، عالمون ، متعلم ، معلم ، معالم ، معلم ، معلم ، معلوم ، عالم ، عالمون ، عالم ، عوالم) ... الخ. هذا ولم تصل اي لغة سامية اخرى في هذه الناحية والى هذا الشاو .

د ـ ومن ذلك ايضا نظام جمع التكسير الذي لا تشاركها فيه الا اختاها الجنوبيتان اليمنية القديمة ، والحبشية . فقد توسعت هي توسعا كبيرا حتى اصبح للمفرد الواحد عدة جموع من هذا النوع، (كنهر وانهر ، ونهور ، وانهار . وبحر وبحار، وبحور وابحر) .

هـ ـ ومن مميزاتها النحوية تلك القواعد الدقيقة التي اشتهرت باسم قواعد الاعراب والتي تتمثل في اصوات جد قصيرة تلحق اواخر الكلمات ، لتدل على وظيفة الكلمة في العبارة وعلاقتها بما عداها من عناصر الجملة ، وهذا النظام لا يوجد له نظير في اخت من اخواتها السامية ، اللهم الا بعض آثار ضئيلة في العبرية والآرامية ، والحبشية .

و ـ ومن خواص اللغة العربية ومميزاتها ، انها اوسع ثروة في اصول الكلمات والمفردات ، من اخواتها اللغات السامية ، هذا الى انه قد تجمع فيها من المفردات في مختلف انواع الكلمة اسمها ، وفعلها ، وحرفها . ومن المترادفات في الاسماء والافعال ، والصفات ، ما لم يجتمع مثله في لغة اخرى . فلقد جمع للاسد خمسمائة اسم ، وللثعبان مائتا اسم ، وللعسل اكثر من ثمانين اسما. ويروي الفيروزبادي صاحب القاموس ان للسيف في العربية الف اسم على الاقل ويقدر آخرون ان للداهية اربعمائة اسم ، ولكل من المطر والريح والظلام والناقة والحجر ، والماء ، والبئر اسماء كثيرة تبلغ عشرين في بعضها ، الى ثلاثمائة في بعضها الآخر . وقد جمع الاستاذ (درهام) المفردات العربية المتصلة بالجمل وشؤونه فوصلت الى اكثر من خمسة آلاف وستمائة واربعة واربعين وكذلك الشأن في الاوصاف فلكل من الكريم والبخيل ، والشجعان والجبان ... في اللغة العربية عشرات الالفاظ وقد احسن بيانا ابن سيد في كتابه « المخصص » ، كما احسن ابن جني في كتابه « الخصائص » ، وكما افاد كثيرا الثعالبي (في كتابه فقه اللغة) وكان صاحب تهذيب اللغة ابو منصور محمد بن احمد الازهري المولود سنة 282 والمتوفى سنة 370 ممن خدم اللغة واجاد في بيان خصائصها ومعاني مفرداتها ويوجد كثير من علماء اللغة ممن اتوا في قواميسهم وكتبهم ما يدل على فضلهم وتبحرهم ، وعلى ما للغة العربية من خواص ومفردات تعد بمئات الالوف كما تقدم ذكره.

ـ اللهجات العربية وسبب حدوثها وماذا تتناول :

اما اللهجات العربية فالبحث عنها ولا شك هام. ويحتاج الى دراسة خاصة لانها يجب ان تتناول اللهجات القديمة والحديثة . وهي متعددة كل منها بحسب القبائل ، والاقاليم ، والاماكن ، والطبقات من المجتمع العربي وبحسب البيئة والثقافة . فلمصر لهجتها ، وللعراق لهجته ، وللمغرب لهجته ، ولبلاد الشام لهجتها وكذا لليمن، والحجاز ، والكويت ، ونجد ايضا لبلاد شمالي افريقيا لهجاتها . وذلك لاختلاف الاقوام والقبائل التى تسكنها واختلاف حياتهم ومعيشتهم وحضارتهم .

وهو امر طبيعي يتبع قانون التحول ، والتطور ، والانتخاب ، والحاجة ، والتنازع ، والتربية ، واختلاف اللهجات قد يتناول الاصوات ، وقد يتناول بنية الالفاظ واعرابها ، وقد تكون الالفاظ اصيلة او دخيلة ، منحوتة او معربة ، محرفة او مشوهة ، وقد يكون معناها مختلفا عن غيرها .

وقد يكون الدخيل الاعجمي او المنحوت ، او المشتق قليلا او كثيرا تبعا لتقدم المجتمع وتأخره فى العلم ، والمدنية ، وتبعا لكون اصحاب اللهجة المختلفة من الحكام او المحكومين او من المستعمرين او من المستقلين ، وتختلف لهجات المدن عن الارياف ، وفى القطر الواحد قد تتعدد اللهجات بين النساء والرجال وبين اقسام المدن ومحلاتها واحيائها ، وبين اقسام المتعلمين ، والاميين بحيث يصعب على ابن هذا القطر الواحد ان يفهم الكلام الدارج من ابن القطر الثاني كما تختلف لهجة رجال العلم ولغة ارباب المهن والحرف والصنائع والاعمال عن رجال الفن ، والادب والحكومة وارباب الحكم والادارة ورجال الحرب والامن .

ـ ما هو المرجع للغة العربية وتوحيد لهجاتها والباعث لحفظ الفصحى وسلامتها ؟

مهما يكن واقع الحال فى تعدد اللهجات فى الماضي والحاضر فلا مرجع لتقويمها وازالة منحرفها وتوحيدها وحفظ الفصحى وتعميمها ونشرها واستكمال سلامتها الا بنشر العلم وتقوية الثقافة الخاصة والعامة ، وانتشار التعليم والقضاء على الامية ثم انشاء المعاهد العلمية والجامعات والمجامع العلمية واللغوية وانشاء الكليات والمدارس الثانوية والابتدائية وتعميم الجمعيات العلمية والادبية والفنية والمكتبات والاكثار من المطابع والاكثار من تاليف الكتب فى كل علم وفن وبحث ، وان تكون الفصحى لغة التدريس والتاليف والنشر خاصة لغة الصحف والتمثيل ، والاذاعة ، والاعلان والخطابة فيجب ان تكون هي اللغة الفصحى ، واللغة الفصحى مع كل هذه المقومات اللغوية والثقافية مرجعها الاول وحافظها الاقوى والاهم هو القرآن والحديث ولا يزيل ضعفها ويوحد لهجاتها ويقوم معوجها الا الادب العربي السليم فى الشعر والنثر والكتابة ، والغناء ، والتمثيل ، والاذاعة ، والاعلان ، وما يشمله الادب العربي من تاريخ ومحفوظات ومخطوطات ومطبوعات. والامية كلما زالت ، او تقاربت كتب التعليم ومناهج التعليم فى جميع درجاته فى البلاد العربية وتوحدت، وعمت الوحدة المجامع اللغوية والعلمية ، وتطورت وساعدتها الحكومات وامدتها المؤسسات الاهلية بما يلزمها من المساعدات المادية والمعنوية لتفاهم العرب واسرعوا بتقدمهم ورقيهم وتشييد حضارتهم بالقوة التى كانت لآبائهم فى فجر انطلاقتهم الاولى وفى عصورهم الذهبية والمولى يؤيد من ينصره وهو على كل شيء قدير .

العربية ورجال المهجر

كيف ينبغي أن تستفيد العروبة والإسلام من آلاف الاختصاصيين العرب في "مهاجر" أمريكا؟

الاستاذ فؤاد الشايب

مدير مكتب الجامعة العربية
بوينوس ـ ايرس

توصلنا من حضرة الاستاذ فؤاد الشايب مدير مكتب الجامعة العربية في بوينوس ايرس بامريكا الجنوبية بجواب متاخر عن الاستفتاء حول علاقة الاسلام باللغة العربية وهو يلقي اضواء جديدة على المشكل من جهة خاصة تتصل برجال المهجر العرب في القارة الامريكية ونحن ننشره شاكرين :

ان مصير اللغة العربية في المهاجر يبقى ابدا في قمة المشاغل والاهتمامات التي اعانيها ويدي مغلولة الى عنقي. عسى ان يكون في اثارة المشكلة ، والتعاون في مجابهتها ما يضعنا واياكم في الطريق العلمية والعملية الصحيحة ، التي يؤلف (استفتاؤكم) مرحلة ضرورية من مراحلها الاولية .

وانني اذ اشكر لكم اشراكي في الاستفتاء ، اغتنم الفرصة لادلي ببعض الراي الصريح ، الذي يتجاوز الدراسة الى حيز العمل السريع المنقذ ، في مجابهة القضية . راجيا ان يكون شفيع هذا الراي ، شعوركم معنا بان الذي يعيش مع المحنة عن كثب ، لا يستطيع ان ينظر اليها بقلبه ولسانه ، دون يده .

عسى ان يكون لكم ولنا بعض بعض اليد الصغيرة، في المرور من مرحلة التفكير الى مرحلة التدبير .

جاء الاسلام والعرب ثقافة ودولة. كانت العربية، في عصر النبي ، مهيأة عبر اطوار متعاقبة من التطور والتكامل ، لان تكون لغة الدولة ، وحاملة رسالتها الثقافية .

فاذا قلنا ان اللغة العربية تمززت بالقرءان ، كان ذلك صحيحا . واذا قلنا أن الاسلام اعتز باللغة العربية ، وسال على اسلات اقلامها ، كان ذلك صحيحا ايضا . فالوحي اختار منزله الصالح في الارض ، والمنزل الصالح تسامى حتى استحق استيعاب الوحي .

ان مدى التلازم والترابط بين الاسلام واللغة مدى غير محدود . فاذا نظرنا الى كيف أصبحت اللغة العربية اداة الادب والعلم والحضارة عامة ، فيما تجاوز التخوم العربية الى بلاد فارس والروم ، وكيف اصبح لتاريخ الفكر العربي اشراق حضاري ساهم فيه مثقفو العصر ، على اختلاف اعراقهم ، ادركنا اهمية الحدث الحضاري ، في تلازم الاسلام واللغة معا في تكوينه ، دون ما تفاضل او تشاد بين سهم الدين وسهم اللغة في حركة التكوين هذه .

من حيث اللغة ، لم يكن في تاريخ العصر ، بين لغات الارض ، ما هو اكثر تفجرا واشتعالا من اللغة العربية ، ضمن حدود السلطان العربي الاسلامي وخارج حدوده ايضا . فكان لزاما على كل من يريد ان يعلم ويتعلم في هذا المدى الجغرافي الواسع ، ان تكون بين يديه كبرى ادوات العلم والتعليم : لغة العرب

من حيث الدين فقد سجل الاسلام حدثا فذا في تاريخ تفجر الحركات الانسانية على انه توحيد بين الدين والثقافة في تناسق من الاشراق الفكري والنزوع الانساني . وكان الفتح ، بخلاف الكثير من الغزوات في العالم ، ثورة ثقافية جديدة عنت لها القلوب قبل الرقاب . وبديهي ان تشرق اللغة ، في حمى الدولة ، دينها ثورة ثقافية ورسالة حضارية .

وما يقال في تلازم الاسلام واللغة العربية ، يقال في تلازمهما عروبا . لكن تلازم العروب تدلعه صفة خاصة ، اذ ليس ضعف اللغة هو الذي ادى الى ضعف الاسلام والدولة العربية . بل بالعكس . فان تقلص ظل الدولة قد ادى الى تقلص ظل اللغة . وفي هذا التلازم الغروبي، ما يشير الى اهمية سلطان الدولة ، في اقامة كيان الثقافة والحضارة .

على انه بالرغم عن اهمية عامل السلطان السياسي ، في تكوين الكيان الثقافي الحضاري ، فقد ناضل الاسلام ، واللغة ، منفردين او مجتمعين ، طوال حقبة وبدون سلطان الدولة ، نضالا جبارا ضد قوى الظلم والظلام . بما لم يتيسر ويتوافر كله ، لاي دين واية لغة في نهضات الزمن الاخير .

على انه يجب القول هنا ، انه بينما كان الدين عنصر مقاومة ، في كثير من الحالات السلبية ضد الضياع والخضوع ، كانت اللغة ، من جهتها ، عنصر هجوم في معاقل الظلم والظلام. ومع اطلالة النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، كان يشهد في سماء الشرق ان اللغة العربية غدت طليعة الاشراق العربي الجديد .

وعندما تنادى العرب الى ثورة قومية ضد الدولة العثمانية المتلبسة بالاسلام ، وانحسر قناع العداء التركي للعنصر العربي ، بحيث غدا الدين شعارا سياسيا ، وليس ايمانا ، وليس صدقا وحقا ، كانت اللغة العربية تقف على قدميها من جديد ، في دعوة الى احياء التراث الحضاري ضد مزوري هذا التراث الدائبين على طمس معالمه وجوهر فضائله . وعبر اللغة بدات حركة تلاقح فكري بين الشرق والغرب ، بالترجمة والنقل ، من اهم مظاهرها في القرن التاسع عشر ، ادب النزعات القومية . ونشات اجيال عربية جديدة في دور ثقافي ركناه : احياء التراث العربي وتاكيد الوجود القومي المشترك .

ومن اهم ملامح الدور القيادي الذي نهضت به اللغة العربية ، نثرا وشعرا في المواطن العربية نفسها، وفي المهاجر التي نزح اليها النازحون ، ان شارك المثقفون ، مسلمين ومسيحيين ، في احياء التراث العربي وفي الدعوة الى قومية عربية مستمدة من امجاد هذا التراث . ولا يجهل باحث في ادب القرن التاسع عشر وطلائع العشرين ، اسماء الاعلام العرب الذين كانوا على القيادة الفكرية في المواطن والمهاجر .

وفي المهاجر بصفة خاصة ، وباندفاقة نادرة المثال، تغنى الشعراء والمؤرخون بامجاد الامة الواحدة،

التي تحدرت دولة وكيانا من فجر الاسلام . وجرت كلمتا (الاسلام) و (العروبة) على اقلامهم ولهواتهم مترادفتين غير منفصلتين في الجوهر . وتسابقت محافل الشعر الى احياء ذكرى المولد النبوي ، في عواصم المهاجر ، ولم يخل ديوان شاعر مسيحي من قصيدة او قصائد تتغنى بمجد الرسول على انغام نهج البردة وعلى انغام واوزان سواها . وبهذا تتجلى عبقرية اللغة العربية مصعدة بالعمل الادبي ، في احياء التراث منظورا اليه في كلياته المطلقة ومعانيه الخالدة.

من هذه الزاوية ننظر الى كل دعوة تمس كيان اللغة وجوهرها ، كانها دعوة الى توهين العروبة والاسلام على السواء .

ومن هنا ننظر الى **ضعف الاسلام في نفوس** المهاجرين المسلمين الذين نزحوا الى المهاجر الامريكية، على انه ضعف في اللغة التي تمارس بها العقيدة . وان تكن ثمة اسباب اجتماعية وجيهة في تفسير تضاؤل الوعي الاسلامي ، فيجب الا ننسى ان من اخطر بواعث الوهن الديني وهن اللغة في ربط ما بين لسان المؤمن وشعوره .

وقد شهدت جمهورا مسلما في جامع مهجري ، يصغي الى واعظ خطيب يتدفق بلاغة وبيانا ، حتى انتقلت الى الجمهور حماسته كما تنتقل الكهرباء ، وراح بعضهم يبكي وينشج . فسالت بعضهم : لماذا تبكون ؟ اتفهمون كل ما قاله الواعظ ؟ قالوا اننا نبكي لاننا لا نفهم .

وجاء المترجم يلخص عظة الخطيب ويترجم بعض الآيات فتحركت الرؤوس مرتعشة ببعض المعاني . ولكن الوجوه ظلت جامدة والعيون عطشى لا يطل منها ذلك الاشراق العجيب الذي ينبعث من الاعماق ، حيث تخترق الكلمة الشغاف وتستقر في منابع الاشراق . وتوارى المترجم كانه اقترف ذنبا واحاط الجمهور بالخطيب وهم لا يعرفون العربية وهو لا يعرف الاسبانية ، وفي عيون الجميع ذلك الوله الذي يعبر عن عجز البلوغ وامتناع اللقاء .

وفي الجواب عن فقرة من سؤالكم اقول :

ليس للفكر الاسلامي عن طريق لغة القرآن ، اي تاثير في لغة الجالية الاسلامية العربية في الارجنتين ، او في لهجاتها . وعددها يكاد يبلغ الاربعمائة الف نسمة — بل اكاد اقول — دون النظر الى العدد الضئيل المحدود من المتنورين — ان ليس للثقافة الاسلامية اثر في تكوين شخصية المسلم المهجري . فلا هو يتلقى الفكر الاسلامي عن العربية ولا هو يتابعه عن الاسبانية في اقل تقدير . انه مسلم لانه لا يتنكر لمولده الديني ، ولكنه يغرق في العجمة باستمرار . وان يكن فخورا بانتسابه فلا يكفي ان يكون الفخر وحده عامل المقاومة والاستمرار .

بل لنقل العكس في تاثير اللغة الخارجية على العربي المسلم في المهاجر . ان صديقا لي يدعى حسين عباس ، هو في الهوية وفي المجتمع (خوسيه ابه) . اما (خوسيه) فهي ترجمة (حسين) . واما عباس فقد اصبح (ابه) ، كما اصبح عبد الكريم (اميركو) . وهكذا تريد الدولة ان تعطي رعاياها اسماء تنسجم مع اسمائها ، لينصهر المواطن في وطنه الجديد . وفي هذا الوطن الجديد، الوف المدارس الاجنبية للانكليز وللفرنسيين وللبرتغاليين، كجاليات، بل لليهود مئات المدارس وعشرات للارمن . وليس للجالية العربية التي تبلغ المليون نسمة في المهجر الارجنتيني ، سوى بضعة مراكز للتدريس العربي غير النظامي لا يكاد يتجاوز عددها اصابع اليد الواحدة .

ايها السادة في المكتب الدائم لتنسيق التعريب — في الرباط

انني اذ اتخطى في جوابي عن سؤالكم حدود السؤال ، الى طرح قضية ومعالجة ماساة ، فلانني اريد ان اهتبل الفرصة **لاخاطبكم ليس كمكتب تعريب** فحسب بل كجمامة توجيه ايضا ، لاسيما وقد تجاوزتم في سؤالكم المحيط العربي الى المجتمعات خارج الوطن العربي .

ليس شاني في هذه العجالة ، ان اعني في كيف يصح اسلام المسلم في باكستان — وايران وتركيا والصين مثلا — بل انني لاعني حقا في كيف يصح اسلام المسلم العربي بالذات في مهاجره الاسيوية والافريقية والامريكية . والمسلم العربي ، كما ارى بوضوح ، لا يمكن ان يصح اسلامه الا بعربيته ، كما لا يمكن ان تصح عروبة اي عربي آخر الا بعربيته ايضا . ان صاحب الرسالة مسؤول ، والعربي هو وريثها الوحيد . وقد راينا كيف نهضت

اللغة العربية فى بدء عصر النهضة الحديثة ، بدور الدين والدولة معا فى قيادة الموكب العربي الصاعد . وليس من شك فى ان هذه الظاهرة الرائعة حدث من احداث التاريخ جدير باهتمام الباحثين وعنايتهم والحاكمين المسؤولين مثلهم ايضا .

ان رقم المليون عربي مسلما ومسيحيا ، فى الارجنتين يقفز الى اربعة ملايين حتى الخمسة فى دول امريكا اللاتينية . وعندها نعود الى تاريخ هذه الهجرة العربية الضخمة ، منذ مائة عام ، نفكر فى مآسيها وفواجعها . ولكن عندما ننظر اليوم الى واقع هذه الهجرة ، لا نلبث ان نحمد عواقبها من باب لا تكرهوا شيئا لعله خير لكم . افكر فى الزخم الروحي والثقافي الذى اعطته هذه الهجرة لتاريخ اللغة العربية والفكر العربي فى المهاجر . وافكر فى هذه المعجزة التى تمت على ايدي المهاجرين الرواد ، احيوا امجاد الاندلس فى الامريكات . ثم افكر فى تلك الانطلاقة المستقبلية الكامنة فى اعماق اربعة ملايين عربي ، عندما تستطيع ان تفجرها اللغة العربية ، والتعليم العربي ، فتردها للعروبة قوى عاملة فى كتل بشرية ضخمة تعد نفسها لمستقبل عالم جديد بينما هي اليوم فى واقعها قطع جليدية مبعثرة فى المحيط ، آخذة يوما بعد يوم بالذوبان او بالانحدار نحو القاع .

اريد ان اتحفظ قليلا فاقول : **لولا مجهودات** مشكورة اتخذت طابعا جديا فى الاعوام الاخيرة ، **لاحياء الدين الاسلامي** فى قلوب المسلمين وعقولهم من جهة ، ولولا ما تثيره قضية فلسطين فى نفوس هؤلاء القوم العرب او من اصل عربي ، من جهة ثانية ، لكانت الصورة اكثر ظلاما . ولكن هذا وذاك ، لا يتذرع باللغة العربية سبيلا الى احياء الدين او احياء الشعور القومي . وان تذرع فقليلا جدا . ويبدو بالاجمال ان هناك غفلة لدى قادة الراي ، من اهمية اللغة فى ربط ما بين العربي ودينه ، وربط ما بين العربي وقوميته .

مثال ذلك :

انا لا اوافق على ان احياء الدين الاسلامي لدى المهاجرين ، يمكن ان يسلك مسالك التبشير المسيحي فى الاصقاع البعيدة ، حيث يتم التبشير بلغة المحيط ووفق لهجاتهم وتصوراتهم المحلية ، كان يصوروا مريم العذراء ـ مثلا ـ بصورة صينية او هندية او زنجية ، تقريبا للصورة من اذهانهم ووجدانهم . والفرق ان الاسلام مغروس فى العروبة والعربية ، وبهذا يتميز كرسالة سماوية ، وانسانية ، عما سبقه من اديان .

ومثال ذلك ايضا :

فى تجاربي الشخصية ودراساتي للادب المهجري فى اوائل هذا القرن ، ان الادباء والشعراء المسيحيين، الذين كانوا رواد نهضة ادبية مشهودة فى الامريكات قد وصلتهم لغتهم وصلا روحيا قويا بقوميتهم وبتراثهم العربي ، الذى فى قمته القرآن الكريم . وكانوا اكثر وعيا وتفهما للاسلام ، وامتزاجا به ووفاء لحقه عليهم ، ليس اكثر من العامة العربية فحسب، بل اكثر من العامة الاسلامية نفسها . وذلك من بديهيات نفاذ اللغة الى التاريخ والتراث ، ومن وعي هذا التاريخ ، وهذا التراث الحضاري، بلغته لا يمكن الا ان يحبه ويفي له .

ومثال ذلك ايضا :

انه قد غدا من الثابت، فى السابق واللاحق، من دراسة ثقافات الدعاة وسير حياتهم ـ من اجانب وعرب ـ ممن دعوا الى التاليف والكتابة بالعامية ، حتى ممن دعوا الى الكتابة باللاتينية ، انهم اصحاب اغراض واهواء مشبوهة . بل خرج بعضهم من الشبهات الى الافتضاح ، وغدوا يشار اليهم بانهم يعادون العربية لانهم يريدون ان يحرروا انفسهم من تلازم الدين واللغة والعروبة ، اما لانهم يخشون العروبة ، او لانهم يخشون الاثنين معا . وليس من شك بعد فى ان الدعوة الى العامية محاولة لتحطيم جوهر الوحدة ، والدعوة الى اللاتينية بحجة العالمية ، محاولة لتحطيم مجد الرمز . فاللغة العربية ، بالدولة العربية القادرة ، غدت خلال قرون طويلة لغة الشعوب فى آسيا وافريقيا واوربا . وقد انتهت العربية بين يديها ولم تهدر هي سلامتها تحت اقدام العالمية . وادبنا العربي الحديث ، قد قصر عن العالمية ليس لانه مكتوب فى الحرف العربي بل لان الادب الجديد نفسه كعنصر ابداع ، لم يرق بعد الى العالمية، وما يرقى منه حتى الآن، موجود فى مكاتب العالم مترجما مصفى اليه محتفى به . ثم لا ننسى شان الدولة فى المرور الى المستويات العالمية .

— 2 —

الاستنتاج بنقاط مختصرة :

— المهاجرون العرب وابناء المهاجرين بحاجة ماسة وعاجلة الى تعلم اللغة العربية والتدرج فى فهمها، ابتدائيا واكماليا وتثقيفيا .

— حتى الآن تراخت الدول العربية ، منفردة او مجتمعة ، عن تقرير خطة مدروسة وتنفيذها .

— اهم ما يجري من حوار حول هذا الشان قول الدول العربية انه من شان المغتربين العناية بلغتهم ، لاسيما وان كثيرين منهم اصحاب ثروات وقدرات . وقول المغتربين فى الرد على هذا القول ان الدول العربية تهمل المغتربين وتدير لهم ظهورها ، وهي التى يجب ان تفتح المدارس وتنفق عليها ، كما تفعل بعض الدول الاجنبية فى مساعدة جالياتها المهجرية — وبالفعل تفعل — .

— ان هذا الحوار سمعته منذ عشرين عاما ، ولا يزال دائرا وسيظل دائرا ، كالرحى تدور على نفسها وليس ما تطحنه .

— بالحق ان المغتربين اولى بالانفاق على مدارسهم . ولكن الحجر الاساسي لبدء العمل يجب ان تضعه الدولة العربية — اقول الدولة واعني جميع الدول —

— فالقضية ليست قضية من ينفق . بل هي الآن واليوم قضية من يبدأ . والدولة هي التى تبدأ، والاهلون سيتولون الانفاق يقينا . ولكن بعد مرور مرحلة الحجر الاساسي .

— ان القيادات الفكرية فى واقع الجاليات الحالي ، ضعيفة ، وغالبا ما تكون مفتقدة والدولة العربية فى المرحلة الاولى ، يجب ان تتولى قيادة الراي. وانا على يقين انها ما ان تضع النار فى الشعلة حتى يتكامل الاشتعال بناموس حركة الشرارة .

— ان المدرسين يجب ان ياتوا من البلاد العربية ومعهم خبرة التدريس ومواد التدريس وبعض العون المادي لبدء التاسيس . اما اشادة البناء المدرسي فيمكن بيسر ان يتم من قبل الجاليات .

من المفيد ان تعلم الدول العربية بان حكومة الارجنتين — مثلا — تشجع تشيير المدارس النظامية التى تدرس لغة البلاد واية لغة اخرى ، ما دام البرنامج نظاميا . والمساعدة الحكومية يمكن ان تبلغ السبعين بالمئة من ثمن الارض والبناء . فما قول الاخوان فى هذا ؟

— اقول يجب ان ياتي المدرسون من البلاد العربية حاملين علما واخلاقا وشعورا بالمسؤولية الكبرى . ليس لان المدرسين مجرد مساعدة (انفاقية) بل لانهم يتولون رسالة ويقومون بدعوة . وهنا اهمية الفكرة .

— بدات الجامعة العربية بتاسيس صندوق الدعوة العربية . وليس اهم ولا اجل من ان تبدا الدعوة العربية من اللغة العربية ، ويكون الانفاق على (اللغة) جزءا كبيرا من الانفاق على (الدعوة) : الدعوة للغة، الدعوة للتراث العربي ، الدعوة لفلسطين. وكيف تنفصل الدعوة لفلسطين عن الدعوة لها فى الجاليات العربية التى هي فى المقام الاول سلاح الدعوة ويجب ان تكون سلاحها ؟ .

— وفى رايي الاخير ان صندوق الدعوة العربية باشراف الجامعة العربية ، يجب ان يتكامل ويتصاعد بمساعدة الدول العربية والجماهير العربية ، وان يعلن بان تعليم ابناء المغتربين جزء من الدعوة ، وموارده ونفقاته جزء من موارد صندوق الدعوة ونفقاته .

— 3 —

قد يعترض معترض ويقول : ان الامية تسود ارجاء الوطن العربي بنسب تتراوح بين خمسين بالمئة وسبعين بالمئة . واولى بالدولة العربية ان تعنى باميتها قبل ان تعنى بمهاجريها والاعتراض مرفوض لاسباب ، اهمها :

اولا — ان المواطن العربي يربيه وطنه ويوجهه ويواصله روحيا باخلاقية الوسط والمجتمع ، ولا خوف عليه من الضياع . اما المهاجر العربي فهو (يتيم العرب) والمهاجرون يتامى لا صلة لهم بارضهم ووطنهم فما حكمة القول ان نتركهم يتامى .

ثانيا ـ اذا كان المواطن المقيم جزءا من بناء الوطن الداخلي، فالمواطن المغترب امتداد لكيانه المادي والثقافي معا . وهو حياة اجتماعية اخرى فيما وراء حدود الوطن . وفي ظروفنا السياسية الراهنة ، يمكن ان يكون المغترب اجدى فعالية من المقيم ، في خدمة بلاده وقضاياها الخارجية . وعلى هذا فان المغتربين ثروة بشرية وموجة حضارية من الطراز الفريد في تاريخ العرب الحديث .

ثالثا ـ ان النهضات في حياة الامم حركة شاملة ذات اجزاء متكاملة ، لا يهمل بعضها لحساب البعض الآخر، كان يعمل للسياسة دون الاقتصاد ، او للاقتصاد دون الثقافة ، او للرجل دون المراة ، او للمواطن دون المغترب . هذا اذا وضعنا بديهية اننا امة ذات مستقبل ورسالة حضارية . واننا يجب ان نخطط لهذا المستقبل ولهذه الحضارة . واللغة تراثنا الحضاري الخالد .

قد يعترض معترض آخر ويقول : قضي الامر واندمجت الجاليات العربية في محيطاتها وابتلعتها اوطانها الجديدة التي تنتسب اليها وتندمج فيها .

والرد على الاعتراض :

اولا ـ لا يهم ان تكون الاجيال من اصل عربي قد انتسبت واندمجت . فالبلاد العربية بالواقع لا تفتش عن مزيد من عدد الرعايا ، التي لا يضير اوطانها ان تحمل في جنباتها روحانية الثقافة العربية العريقة ، بل تفتح لها صدرها اذا وجدت .

ان مجتمعات جديدة ، مثل مجتمعات امريكا اللاتينية ،تفتش عن جذور لها في الاعماق ، لانه ليس لها في تاريخها تلك الجذور . وهي برغم اتجاهاتها نحو الثقافة الاوربية بدافع السياسة احيانا ، والتقليد للغرب احيانا اخرى ، لا تجهل انها امتداد لحضارة اللغة الاسبانية التي تؤلف العربية خمسة عشر بالمائة من قاموسها الرسمي او اكثر (1) . وللاندلس الاسبانية التي عاشت في دم اهل البلاد ثمانمائة سنة ، وظلت تمتد وتنتشر بعد ذلك في العادات والتقاليد والاقوام النازحة هنا وهناك ، حتى بعد هروبها السياسي . ففي الارجنتين والبرازيل ـ مثلا ـ يرمز الى رجل (الغاوتشو) ـ رجل الصحراء ـ على انه نموذج الاصالة الوطنية، وعلى انه الدفقة العربية التي انساحت في ارجاء البلاد من الاندلس وعلى انه يمثل حقا عراقة الاصول الاولى التي انغرست في الارض قبل ان تفد اليها وفود المهاجرين من اوربا . وفي الارجنتين اليوم تيار ثقافي قوي يريد اعطاء البلاد اخلاقية عريقة ، هي اخلاقية الرجل (الغاوتشو) ساكن البلاد القديم ، رجل المروءة والحرية والفروسية ، ضد التيار الاوربي الغربي الذي هو في راي بعض الوطنيين الارجنتينيين من هذه المدرسة تزوير لشخصية الارجنتين الثقافية والاخلاقية ـ ولهذا الموضوع حديث طويل (2) .

اذن فلا الذين استوطنوا هذه المهاجر بمائدين ، ولا اوطانهم العربية بحاجة حقا الى عددهم . ان خمسة ملايين في المهاجر الامريكية كلها يمكن ان تنتجهم الامة العربية في مدى خمسة اعوام او اقل . ولكنها

---

(1) يعيش في مدينة (كوردوبا) المدينة الثقافية الجامعية الاولى في الارجنتين ، عربي سوري هو الاستاذ يوسف الغريب . وينصرف الى ترجمة الآثار العربية الى الاسبانية . وقد ترجم (كليلة ودمنة) و (عمر الخيام) ومجموعات من حكم العرب واقوالهم في كتاب (الحكمة العربية) ، كما ترجم جبران ونعيمة وشفيق المعلوف . وقضى خمسة عشر عاما في ترجمة القاموس الاسباني الرسمي الى اللغة العربية ، في اكثر من ثلاثمائة الف كلمة ، مشيرا الى الاصل العربي للكلمات الاسبانية . وهو قاموس فريد من نوعه يقع في ثلاثة اجزاء جاهزة للطبع . والاستاذ الغريب في سن السبعين ويعتبر نموذجا للرجل العربي المغترب الذي كرس نفسه لخدمة لغته وتراثه .

(2) يساعد مكتب الجامعة العربية في بوينوس ايرس احد الباحثين المؤرخين المعروفين (سيزار كيروس) في تاليف كتاب عن الجذور العربية لرجل (الغاوتشو). ومساهمة هؤلاء الصحراويين الارجنتينيين في معركة استقلال الارجنتين ، كمحاربين اشداء وفرسان مروءة ووطنية .

لا يمكن ان تؤلف هجرة جديدة ، على هذا المدى الفريد في التاريخ الحديث . لقد كانت الهجرة رمية اقدار. ومن ذكاء السياسة احيانا ان يتحالف الانسان مع اقداره . عندما يكون هذا التحالف فاعلا ايجابيا مخصبا .

ثانيا ـ من عجيب امر هذه الهجرة ، ان الابناء والاحفاد ، الذين هم ارجنتينيون بالمولد لا بالتجنس ، يستفيق جمع منهم على (شرف الانتساب) ، فاذا بهم أكثر احساسا بقضية الوطن الذي تحدر آباؤهم واجدادهم منه . ولهذه اليقظة الروحية اسباب ، اهمها : ثقافة الاجيال الجديدة من جهة ، وبراءتهم من مركب النقص والاضطهاد من جهة ثانية . وعلى النقيض كان آباؤهم واجدادهم فقراء اميين مصابين بذكرياتهم المريرة ، يشعرون بالاضطهاد، سواء في تذكر المواطن التي هجروها ، ام في المواطن التي لجأوا اليها . فهم ليسوا سوى طالبي امان ورزق ، ونسيان ايضا . ولكن يجب الا ننسى مع ذلك ، ان الدفقة المهجرية الثقافية في اواخر التاسع عشر واوائل العشرين ، مما المعنا اليه ، قد صدرت عن هؤلاء المترحلين الاميين الذين ، كما يقول بعضهم ، (علمتهم غربتهم الوطنية) ، والذين فهموا اسرار اللغة ، في المهاجر ، ودرسوا التاريخ ، واعطوا الادب العربي حياة جديدة.

ان المستيقظة مشاعرهم من الاجيال الجديدة ليسوا كثيرين بعد ولكنهم قلة تدل على وجود الينابيع في الارض العميقة .

قد يكون ارتداد بعضهم الى الينابيع نموذجا امريكيا لاتينيا شائعا في التفتيش عن اصالة ، عن عراقة ، عن جذور عميقة . ولكن من المؤكد ان الارتداد الى منابع النسب العربي ، عن طريق الدين، او عن طريق اللغة والتراث عامة ، يحمل شعورا عميقا ، غير مزيف بشهوة التفتيش عن (مظاهر) الاصالة وحدها .

حتى الارجنتيني نفسه من مدرسة (الفاوتشو) يتجاوز في نظرته الى المنابع، موضوع الدراسة التاريخية ، والبحث العلمي ، ويعتبر وجود (الفاوتشو) في الاصول مسالة ثقافية اخلاقية .

ثالثا ـ يقال ان الجاليات العربية تفسخت في المرحلة الزمنية الاخيرة ، سياسيا وقوميا ودينيا ، وغدت مجموعة من المتناقضات والاتجاهات .

وهذا صحيح . بقي ان نعرف بالتفصيل وجه هذه الصحة . ان امراضهم ليست من صنعهم بل من صنع اوطانهم . والتفسخ هو بضاعة مصدرة من المواطن الى المهاجر ثم ان هذا العالم قد تقلصت ابعاده وغدت تجري اخباره بسرعة البرق . وهؤلاء العرب يعيشون في هذا العالم وليس في الكهوف المحجوبة عن اجنحة الطيران والسنة البرق . وكثيرا ما نعجز في الاجابة عن تساؤلاتهم وحيراتهم وشكوكهم . ثم كثيرا ما نطلب اليهم ان يديروا ظهورهم لمشاكل اوطانهم . ويكون الابعدون قدوة للاقربين . ولكن كلامنا بالحق ليس سوى (موعظة حسنة) .

ومع ذلك فكثيرا ما جردوا قضية اوطانهم تجريدا ورفعوها الى مستويات العقائد والكليات وتجاوبوا مع ثورات اوطانهم في الاحزان والافراح ، والهزائم والانتصارات . وقاموا وقعدوا على آمال مشرقة وخيبات مريرة .

ومع ذلك فقد منحوا بلادهم مدرسة ادبية فريدة وفجروا في المهاجر وفي المواطن مشاعر قومية اصيلة، اقوالا واعمالا ، خلال خمسين سنة من اوائل هذا القرن . وارسلوا الى اهلهم مليارات من الاموال كانت بالواقع جزءا لا يتجزأ من الدخل القومي العام الذي ساهم في رفع مستوى المعيشة في قرى ومدن كثيرة كبيرة وصغيرة . ولم يكن شعر المهجر وحده الذي يبلغ الاوطان ويثير المشاعر والمخيلات ، بل كانت الوف الرسائل الصغيرة تصل كل عام ليقراها تحت ضوء قناديل الزيت والكاز في القرون النائية وازقة المدن الخلفية ، الوف المواطنين المتواصلين مع اهلهم برسائل الاشواق والاحزان .

لقد منحوا كثيرا ولم نمنحهم شيئا . لم ينسوا اصولهم الى الحد الذي يزعمه المتعبون ، بل نحن في المواطن قد نسيناهم. وعندما يخطر لنا ان نفكر بهم ، في شأن انشاء مدرسة عربية ، لا نزال منذ ربع قرن نتساءل كاننا اذكياء : من يبدأ؟ هم ام نحن ؟.. من يدفع ... هم ام نحن ؟

يستوي في اهمال المغتربين جميع المواطن العربية بالاضافة الى الموطنين الاساسيين : سوريا ولبنان . والا فكيف نريدهم، للغة والتراث وفلسطين، وننظر الى واجبات الدول العربية ازاءهم كوحدة ايضا لنشعرهم حقا بانهم اصحاب حقوق واصحاب تبعات معا ؟

لماذا ـ مثلا ـ لا يشترك كويتي في مساعدة مدرسة وسعودي في ترميم كنيسة ، وليبي في انشاء جامع ؟ لماذا لا يدعى كاتب سوري الى المغرب او طبيب لبناني الى اليمن ؟ ولماذا لا نستفيد من خبراتهم ونحن نركض وراء الاجانب من أصحاب الخبرات ؟ ولماذا لا نقيم لهم حلقات دراسية وبعثات جامعية .. وجولات سياحية؟ والخ الخ الخ .

بل لماذا لا نبدأ على الفور بتخصيص جزء من دخل صندوق الدعوة العربية لتعليم اللغة العربية ونشر آدابها وتراثها ؟ ولماذا لا نضع خطة علمية مقررة على مراحل ، تشترك في تمويلها الدول والجماهير معا ، في المواطن والمهاجر ؟

ايها الاخوة في المكتب الدائم لتنسيق التعريب

ارجو معذرتي اذا استطردت من الجواب عن اسئلة استفتائكم الى الخوض في تفاصيل الوضع الاجتماعي والثقافي العربي في المهاجر. وفي رايي ان **هذا التفصيل ملازم لجوهر القضية ، لاننا اذا طمحنا الى بعث اللغة العربية خارج حدود الوطن العربي ، وجب علينا ان نعرف ما هي الشروط الاجتماعية والثقافية الكائنة** والتي يجب ان تكون ، لتصبح مطامحنا اكثر من امنيات وابعاد من مجرد (دراسات) .

احييكم واشكركم واضع نفسي ، ما دمت في هذا المهجر ، صاحب مسؤولية ، تحت تصرفكم في كل ما يخدم الاهداف السامية التي تعملون في سبيلها .

تحديات في وجه اللغة العربية

التبشير واللغة العربية

الأستاذ أنور الجندي

(القاهرة)

واجهت اللغة العربية منذ اوائل العصر الحديث تحديات خطيرة جائرة من خلال النفوذ الاستعماري الذى سيطر على العالم العربي ، ورأى فى اللغة العربية عاملا من العوامل الخطيرة التى تعارض تثبيت قواعده . ومن هنا فقد عمد النفوذ الاستعماري الى عملين خطيرين :

اولهما : تجميد اللغة العربية عن التوسع فى العالم الاسلامي

ثانيهما : توسيع نطاق اللغات الاجنبية وتشجيع اللهجات المحلية

وقد كان لمخطط التبشير الذى نفذه الاستعمار فى العالم العربي اثره الواضح فى هذا المجال

فقد وجه التبشير الى اللغة العربية حملة ضخمة قوامها حقيقة اساسية هي ان القضاء على القرآن مصدر الاسلام وقانونه الاسلامي يتطلب القضاء على اللغة العربية الفصحى ولما كان التبشير والنفوذ الاستعماري لا يستطيع ان يكشف هذه الحقيقة صراحة فانه اخفاها وراء كل خطوة اتخذها بشأن الدعوة الى العامية او مهاجمة اللغة العربية وانتقاصها او الدعوة الى الكتابة بالحروف اللاتينية .

وتكشف جميع النصوص التى بين ايدينا على ان هذا الغرض الدفين واضح فى عقل كل من يتصدى لهذا الغرض ، ويبدو خطر الدعوة الى تحطيم اللغة العربية واضحا حينما نرى ان عددا كبيرا من المبشرين والمستشرقين قد تصدوا للكتابة فى هذا الموضوع واقاموا من انفسهم خداما لهذه الغاية لا يرون باسا فى التخفي وتغيير شخصياتهم فى سبيل تحقيق ما يريدون ، حتى ان « ولهم سبتيا » اول الدعاة الى العامية ومدير دار الكتب بالقاهرة يختار ان يعيش فى حي وطني « لكي يستقي العامية من منابعها الاصلية ولا يدون الا ما يسمعه ، ثم يدون ما يسمعه باذنه على كم قميصه خوفا من ان يلاحظه احد المتكلمين فيفقد طبيعته وحريته فى الكلام »

وقد شغل عدد من هؤلاء الاجانب بامر «العامية» المصرية واهتموا بها والفوا عنها وفى مقدمتهم ولهم سبتيا ، وكارل فولرس ، وسلدن ولمور ، ووليم ويلكوكس . وقد بدأ ذلك منذ 1880 واستمر حتى عام 1926 تقريبا .

وفى خلال ذلك كان لطفي السيد وقاسم امين وسلامة موسى قد حملوا لواء هذه الدعوة ثم اتصل ذلك بالدعوة التى دعاها عبد العزيز فهمي عام 1941 عندما نادى بالكتابة بالحروف اللاتينية هذا فى مصر وفى المغرب تولى كولان ومن بعده ماسينون لواء هذه الدعوة وفي لبنان ظهر كثير من الدعاة الى الحروف